الإمامة والقيادة

الدكتور أحمد عزّ الدين

في الدراسات الإسلامية

الحوزة العلمية بقم المشرفة

الإمامة والقيادة

بقلم
الدكتور أحمد عز الدين

Books.Rafed.net

BP عز الدين، احمد.
٥٢ / ٢٢٣ الامامة والقيادة / بقلم أحمد عز الدين.ـ
٤ع / قم: مركز المصطفى للدراسات الاسلامية والبرمجة،
٥م ١٤١٧ هـ= ١٣٧٥
٢١٩ ص.
المصادر بالهامش

١ . القيادة ـ الاسلام . ٢ . الامامة . ٣ . الخلافة.
الف. العنوان. ب. العنوان: مشكلة القيادة في الحركة الاسلامية.

شابك (ردمك) ٨ ـ ٠٢١ ـ ٣١٩ ـ ٩٦٤
ISBN 964 - 319 - 021 - 8

الكتاب :	الإمامة والقيادة
المؤلف :	الدكتور أحمد عز الدين
التاريخ :	ربيع الأول ١٤١٧
الناشر :	مركز المصطفىٰ للدراسات
العدد :	٣٠٠٠ نسخة
الطبعة :	الأولىٰ
المطبعة :	مهر
السعر :	١٨٠٠ ريال

Books.Rafed.net

مقدمـة الناشر

بســم ا لله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم

الســلام علــى سيدنــا ونبينا محمـد

وآلــه الطيبــين الطاهـريــن

وبعـد ، فـإن الضعـف في الإنسـان هـو الأصـل ، والقـوة فيــه استثناء (**وخلق الانسان ضعيفاً**) .

والظلم والجهل فيه هما الأصل ، والعدل والمعرفة استثناء (**إنــه كان ظلوماً جهولاً**) .

فليـس عجيبـا أن تـرى شـخصا يضعـف أمـام ضغـوط الدنيــا ومغرياتها ، ويرتكب الجهالات ، ويتجاوز على حقوق النــاس .. بل العجيب أن ترى إنســاناً قويـاً ، يقـاوم الضغـوط والمغريـات ، وينصف الناس من نفسه ، ولا يتصـرف إلا بمعرفـة ! وكمـا قـال الإمام الصادق عليه السلام (**مــا عجبــت لمـن هلـك كيـف هلـك ، ولكن عجبت لمن نجا كيف نجا**) !

Books.Rafed.net

وليس عجيباً أن تـرى أن تـاريخ النـاس يتلخـص في ركضهـم وراء الحكـام والدنيـا ، ومعـــاداتهم للأنبيـــاء والأوصيـــاء .. بـــل العجيب أن تجد من الناس أتباعاً للأنبياء ، ثم تجد في أتباع الأنبياء من ثبت بعدهم ولم ينحرف !

إنها حقائق ثقيلـةٌ علـى الفكـر ، مُـرَّةٌ علـى القلـب ، ولكنهـا حقائق .. ولا يجب أن تكون الحقيقة دائماً حلوة ..

وهي في منهج القرآن أبرز الحقائق في تاريخ الأمم والأديان ، لا استثناء فيها لأمتنا ، وإن كانت خير أمة أخرجت للنـاس ، بـل لقد أكد النبي صلى ا لله عليه وآله بصراحة علـى أن أمتنـا ليسـت استثناء فقال (**لتركبن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل ...**) .

وقضية علي وشيعته القلائل الذين التفُّوا حولـه في حيـاة النـبي وبعد وفاته ، أنهم استوعبوا هذه الحقائق وهذه السـنن ، وعقـدوا عليها القلوب، وعكفوا عليها الضلوع.. فعندما كان النبي مسجى يودع الأمة ، وأهل الحل والعقد محتشدون حوله ، أمرهم أن يأتوه

Books.Rafed.net

بورق ودواة ليكتب لهم كتاباً يؤمنهم من الضلال والإنحراف ، فرفضوا ذلك ورفعوا في وجهه شعار (حسبنا كتاب الله) !

هنا رفع الشيعة شعار التمسك بأهل بيت النبي ، والامتثال قوله صلى الله عليه وآله (إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي) .

ومن يومها الى يومنا هذا، قامت علينا قيامة إخواننا الأكثرية.. ولم تقعد !

فصرنا روافض ، لأننا امتنعنا عن بيعة الخلفاء من غير أهل بيت النبي !

وصرنا مشركين ، لأننا حفظنا وصية النبي في أهل بيته ، فأحببناهم وقدسناهم !

وأباحوا دماءنا وأموالنا والأعراض ، لأننا لم نعط الشرعية لغير أهل بيت النبي !

ودارت على أجسادنا عجلة التاريخ تطحن ما استطاعت .. حتى بنوا علينا الجدران ونحن أحياء ، وألقونا في التنانير المسجرة ،

Books.Rafed.net

وهدموا علينا سراديب السجون ، وشردونا في جهات الدنيا الأربع !

ثم جعلوا عداوتهم إيانا ثقافة ، علموها للناس من على منابر المساجد ، وفي أواوين المدارس ، ثم ملؤوا بها بطون الكتب ، وأورثوها الأجيال !

ثم إذا كتب شيعي كتاباً أو تفوه بكلمة ، فذلك هو الذنب العظيم ، لأنه يخالف قانوناً أجمعت عليه دول الخلافة ، من أول خليفة قرشي الى آخر خليفة عثماني ، مفاده : أنه يحرم على الشيعة أن يدافعوا عن أنفسهم ، حتى لو كان دفاعهم علمياً !

وصار هذا القانون ديناً يتدين به عامة إخواننا الأكثرية ، حتى أنك لتجد أذهانهم في عصرنا مسكونة بأن الاستماع الى حجة الشيعي ذنب ، وقراءة كتاب للشيعة ذنب أعظم !

فكل إنسان ، حتى عابد الوثن ، له حق التعبير عن معتقده ، إلا الشيعي .

وكل إنسان حتىعابد الوثن يجوز الاستماع الى دليله وحجته، إلا الشيعي .

Books.Rafed.net

وكل كتاب يباح دخوله الى البلد وقراءته ، حتى كتب الإفساد والإلحاد ، إلا الكتاب الشيعي !

يقول عالم سني من الفيلبين : نشأت من صغري على الحساسية من الشيعة وكرههم والحذر الشديد من كتبهم ، لأنها كتب ضلال ، حرام قراءتها وبيعها وشراؤها .

وفي لحظة فكرت في نفسي وقلت : أليس من المنطقي أن يطلع الإنسان على وجهة النظر الأخرى ويفهمها ، ثم يناقشها ويردها؟ أليس موقفنا شبيهاً بموقف الذين يقول الله تعالى عنهم (**جعلوا أصابعهم في آذانهم**) ؟

ومن ذلك اليوم قررت أن أقرأ كتب الشيعة ، وليقل الناس عني ما يقولون !

إن قراءة الكتاب الشيعي تحتاج الى مثل هذه البطولة من جهاد النفس ، وجهاد الجو الحاكم في بعض الأوساط !

يضاف الى ذلك أن الكتاب الشيعي في عصرنا متهم بالإضرار بالوحدة الاسلامية ، وإثارة الحساسية والتفرقة بين المسلمين ..

Books.Rafed.net

وكأن وحدة المسلمين في مواجهة أعدائهم لا تتحقق إلا بإغماض العيون وإغلاق باب البحث العلمي في العقائد والصحابة وأهل البيت ، ثم لا تتحقق إلا بأن يتحمل الشيعة فتاوى التكفير وسيل التهم الشتائم ، تطبيقاً لقانون حرمة الدفاع عن النفس !

○ ○

ما هو الحل إذن ؟

الحل هو الموقف المنطقي العقلاني ، الذي ينبغي أن يتفهمه الطرفان .. فلا الوحدة تعني ترك الالتزام بالمذهب ، وتحريم البحث العلمي في مسائل العقيدة والشريعة . ولا حرية البحث العلمي تبررعدم مراعاة الأدب الانساني وأدب الأخوة في الدين..

ولهذه الحرية ينبغي أن تتسع الصدور ، وبهذا الأدب ينبغي أن يتأدب المتكلمون والكتاب .

إن الوحدة الإسلامية تعني وحدة المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وقومياتهم في صف سياسي واحد ، في مواجهة أعدائهم ونصرة قضاياهم ، مع حفظ حرية التمذهب داخل هذا الصف ، وحفظ حرية التفكير والتعبير ضمن الأدب الإسلامي والإنساني ..

Books.Rafed.net

وإذا عودنا جمهورنا المسلم على هذه الحرية وهذا الأدب ، نكون قد روَّضنا جبهتنا الداخلية على التفهم والتفاهم ، وقدمنا الى العالم نموذجاً لحرية الرأي والمعتقد داخل مجتمعاتنا .

فما المانع أن يصلي المسلم السني الى جانب أخيه الشيعي ، ويتحمل أحدهما من أخيه أن يُسْبل يديه في صلاته، أو يَكْتَفِهما، أو يرفعهما بالقنوت لربه ، أو يصلي بدون قنوت ؟

وما المانع أن يقرأ السني كتاباً شيعياً يذكر فيه الأدلة على أن هذا الصحابي قد خالف النبي في حياته، أو انحرف عنه بعد وفاته؟ أو يقرأ الشيعي كتاباً سنياً يذكر فيه الأدلة على عدالة جميع الصحابة ، ووجوب موالاتهم وموالاة أوليائهم ، وأنهم أفضل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله ؟

وما المانع أن يقوم السني مع أخيه الشيعي بعملية ضد الاحتلال الصهيوني فيبدأها الشيعي بنداء (يا أ لله يا محمد يا علي) ويبدأها السني بنداء (يا أ لله يا محمد يا عمر) ؟

إن من غير المعقول أن ننتظر من أتباع المذاهب أن يحققوا الوحدة الاسلامية باتباع مذهب واحد .. فهذه المذاهب ستبقى

Books.Rafed.net

كما يبدو حتى ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، الذي يعتقد بـه الجميع ، ويوحد الإسـلام في مذهبـه الأصلـي .. ولا حـل إذن إلا بالتعايش بـين أهـل المذاهـب وتحقيـق الوحـدة العامـة الخارجيـة ، وإعطاء حرية البحث السليم داخلياً .

○ ○

من هذه الرؤية نبدأ باسم ا لله تعالى هذه السلسلة الفكرية التي تبحث في أهم المسائل العقائدية والفقهيـة والفكريـة ، الـتي تتعلـق بأهل بيت النـبي صلـى ا لله عليـه وآلـه ، ومذهبهـم ، وشـيعتهم . والتي يقوم بإصدارها (**مركز المصطفى للدراسات الإسلامية**) الذي تم تأسيسه بأمر سيدنا المرجع :

آية ا لله العظمى السيد علي السيستاني مد ظله الشريف

ونسأل ا لله تعـالى أن تكـون مفيـدة للجميـع ، لالتزامنـا فيهـا بالبحث العلمي الذي يتحرى الحـق ، ويحفـظ الحقـوق والآداب ، وا لله المسدد للصواب .

الحوزة العلمية بقم المشرفة
٢١ صفر الخير ١٤١٧

مركز المصطفى للدراسات الإسلامية
علي الكوراني العاملي

Books.Rafed.net

مقدمة المؤلف

بســـــم الله الرحمن الرحيم

من الأمور التي لفتت نظري أثناء مطالعة الفكر السياسي عندنا أهل السنة بقاؤه علـى سـذاجته خـلال كـل العصـور رغـم تقـدم الفكر الإسلامي في العلوم والطب والعمـارة والفنـون والإجتمـاع وغير ذلك من ضروب المعرفـة ، علـى النحـو المفصـل في الكتـب المعنية . وحين اطلعت أكثر ، كدت أوقن أن ذلـك لم يكـن عيبـاً فينا بقدر ما كان رغبة في الحكومات التي حكمتنا باسم الإسـلام، وسياسة مبرمجة للابقاء على هذا الجمهور معصوب العينـين، حتـى لا يفهم، وإن كان قد سمح له أن يتقدم في غير ذلك مـن ضـروب المعرفة ، يعمل فيها عقله ، ويرى فيها رأيه .

ثم إني رأيت من تناولوا الحديث في مسائل السياسة عند هـذا الجمهور لم يدخروا وسعاً في الحفـاظ علـى البَلَـه السياسـي الـذي

Books.Rafed.net

عشش على عقول القوم ، بـل أفرطـوا في تقديـس (مـا ومـن) لا يستحق التقديس ، ربما عـن اعتقـاد منهـم بذلـك ، وربمـا إرضـاء للسلاطين ، وهو ما أميل اليه ، حتى رأينا عالماً كابن خلدون يبـذ عصره ويفوق زمانه فيما يختص بآرائه في علـم الإجتمـاع ويـدون من النظريات ما سبق به علماء الغرب بقرون ، لكنه ــ وفي نفـس الوقت ـ يصل الى درجة من التخلف وهو يكتب عن مسائل علـم السياسة يستحي منها كل عاقل ، ثم ينسب ما كتبه الى الإسلام.

وقد دفعتـني هـذه الظـاهرة الى اسـتطلاع مـا كتبـه العلمـاء في مسألة واحدة من مسائل علم السياسة وهي : تعيـين القيـادة ، أو انتاج الأمـة لقيادتهـا فحسـب ، دون التطـرق الى غـير ذلـك مـن أصول وفروع العلم السياسة .

ولما استسخفت ما هو مكتوب وما أريد لنا تقديسه بلانقاش، طالعت ما عنـد الشـيعة ، فليـس تـاريخ المسـلمين ولا دينهـم ولا كتابهم ولا نبيهم ورسالته حكراً علـى فرقـة دون أخـرى ، حتـى يحق لها وحدها أن ترى فيه رأيها ، وتسلطه في كثير مـن الأحيـان على كل المسلمين .

Books.Rafed.net

وانتهيت في هذه المسألة ـ تعيين القيادة في الأمة الإسلامية ـ الى آراء تختلف عما نشأت عليه في البيت والمدرسة والمسجد والمجتمع . ولا أزعم أني سكن ما بي ، كما أني لا أريد أن ألزم الناس بما انتهيت إليه ، خصوصاً وأن أشباه القناعات التي انتهيت اليها ثقلت بي حتى أمالتني إلى وجهة قد يحسها القارىء أو يراها رأي العين .

من هنا رأيت أن أدع هذا الكتاب يجد طريقه الى الناس علّه يكون بداية سلسلة أبحاث جادة تنير الطريق ، وتنزع البراقع السميكة التي فرضت على وجه الحقائق دون شرع . أسأل الله العون والتوفيق .

د . أحمد عز الدين

Books.Rafed.net

Books.Rafed.net

القيادة إمامة وخلافة

مشكلة القيادة في العمل الإسلامي من المشكلات التي صاحبت هذا العمل منذ بدايته بعد انقطاع الوحي بوفاة مؤسس الدولة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم . ولأن القيادة صمام الأمان في كل مجتمع ، وجدنا مجتمعاتنا فوضى ، تعمل ولا نتيجة لعملها ، وتزرع ولا تجني إلا قبض الريح . ويميل بعض علماء السياسة والإجتماع الى رد الفشل في إفراز قيادة واحدة واعية إلى سوء الشعب أو (القوم) نفسه ، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك ، أي أن فشل القوم أساسه سوء القيادة وفشلها . وكل من هؤلاء وأولئك يسوق لتأييد رأيه أدلة وبراهين . والحقيقة أن العلاقة بين القيادة والشعب أو الجمهور أو القوم أو غير ذلك من مترادفات اصطلاحية سياسية للتعبير عن (الناس) إنما هي علاقة

Books.Rafed.net

ديناميكية يؤثر فيها كل طرف في الطرف الآخر ويتأثر بـه . فهـي علاقة ازدواجية التفاعل لا أحاديته . ومن ثـم وجدنـا بـين أيدينـا أحاديث وأقوالاً ظاهرها التنـاقض وهـى ليسـت كذلـك . فيقـال مثلاً (الناس علـى ديـن ملوكهـم) ومعنـاه أن الحـاكم إذا صلـح صلحـت الرعيـة وبـالعكس ، ويقـال أيضـاً (كمـا تكونـوا يـولى عليكم) وهو مـا يعـني أن الشـعب إذا صلـح صلحـت القيـادة أو الحاكم والعكـس بـالعكس . لكـن الأمـر لا يخلـو مـن تنـاقض إذ العلاقة بين الطرفين ـ كما أسلفت ـ علاقة ازدواجية متبادلـة يؤثـر فيها سوء أحد الطرفين أو صلاحه في الطرف الآخر سلباً وإيجاباً ، فتقع المسئولية على كليهما .

ولقد ظهرت مشـكلة القيـادة في المجتمـع الإسـلامي بعـد وفـاة مؤسس الدولة وواضع منهجها والمشرف على سـيرها رسـول ا لله عليـه وآلـه الصـلاة والسـلام ، ثـم اختلفـت المذاهـب الإسـلامية بشأنها على النحو الموضـح في كتـب الكـلام والعقيـدة والسياسـة لدى كل منها .

Books.Rafed.net

والحقيقة أن مطالعة ما عند الفرق الإسلامية من بضاعة في موضوع الإمامة أو الخلافة كما سموها يؤكد أن أهل السنة يخلطون الإمامة بالخلافة برئاسة الجمهورية ، وأنهم استخدموا اصطلاح الإمامة حيناً والخلافة أحياناً للتعبير عن معنى واحد هو رئاسة الدولة ، فالإصطلاح عندهم غير محدد يستوى في ذلك القدماء كالماوردي وابن خلدون ، والمحدثون كالمودودي ورشيد رضا وأبي زهرة . لكننا لا نقف على شيء من هذا الخلط عند الشيعة قديماً وحديثاً فنظرية الإمامة عندهم ـ والقيادة جزء منها ـ مؤصلة مؤطرة .

وما يهمنا في هذا كله ـ لوقد أغمضنا العين عن رؤية الخلط ـ حكم الإمامة أو القيادة الشرعي عند كليهما ، فهي عند الشيعة أصل من أصول الدين [1] يسوقون في تأييده أدلة عقلية ونقلية كثيرة لا يهمنا إيرادها هنا فالمجال مختصر محدود ، وهي عند السنة

---

(١) الشيعة في عقائدهم وأحكامهم ، أمير محمد الكاظمي القزويني ص ٤٢ وما بعدها ، لبنان ١٩٧٢ .

Books.Rafed.net

فرض كفاية [١] كصلاة الجنازة ورد التحية وهو ما يوضح بذاته منزلة هذا المنصب الخطير في فكرهم السياسي .

أما الدليل على أنها فرض كفاية، فليس عندهم غير إجماع الصحابة، دون نص من كتاب أو سنة . ولست أبغي ـ في هذا المجال الضيق ـ استقصاء آراء الأصوليين في هذه النقطة ، وهل يتقرر الفرض فرضاً بإجماع الصحابة فعلاً أو قولاً أو تقريراً ، وأسأل : إذَا كان الصحابة رضوان ا لله عليهم قد شعروا بخطورة هذا المنصب وأهميته فأجمعوا على ضرورة إيجاده ـ وهذا كله عملية عقلية محضة نابجة عن إعمال العقل والفكر في غياب النص ـ فهل يتوقع منهم كمال العقل وإدراك حاجة الدولة ونظامها ، ولا يتوقع ذلك من ا لله ورسوله وهو الذي نص على أن الدين قد اكتمل ، والكتاب قد تم (**اليوم أكملت لكم دينكم**) المائدة ـ ٣ (**ما فرطنا في الكتاب من شيء**) الأنعام ـ ٣٨ .

---

(١) الأحكام السلطانية للمارودي ص ٣ طبع المطبعة المحمودية مصر بدون تاريخ ، الأحكام السلطانية لأبي يعلي الحنبلي ص ٣ ، مصر ١٩٣٨ ، المقدمة لابن خلدون ص ١٩١ ، لبنان ، الطبعة الخامسة ١٩٨٤

Books.Rafed.net

وأختلف بشدة مع ابن خلدون في أن الخلافة ـ وهي عندي كما قلت قيادة ـ لم تكن مهمة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ومن ثم لم يترك فيها شيئاً .

ومع أن أبا يعلى يقول أن طريق وجوبها السمع لا العقل [٢] إلا أنه لم يقدم لنا نصاً مسموعاً يؤيد مذهبه ، إلا أن يكون قد أراد سماع أحداث السقيفة وما تلاها فنعود الى نفس العقدة ، وهي محل ألف نظر.

كما أن أحكام مشايخنا ـ نحن أهل السنة ـ واعتبارهم القيادة من أمور الدنيا والمصالح العامة المتروكة للخلق يفعلون بها ما شاؤوا [٣] تتناقض وتاريخنا ، ولولا أن القيادة حجر زاوية في ديننا لما إستشهد في سبيل تطهيرها من دنس الطواغيت أبرارنا منذ

---

(١) المقدمة ص ٢١٣ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٢ . الملل والنحل للشهرستاني : هامش ص ١٤٤ ج ١ ، مصر ١٩٤٨ .

Books.Rafed.net

القدم حتى اليوم ، فهل هي حقاً من أصول ديننا كما يعتقد إخواننا الشيعة [١] وإذا كانت المسألة ليس فيها نص مما جعل ابن خلدون والماوردي ومن سار سيرتهما من كتّاب السلاطين وزعماء التبرير ، يجتهدون ويفتون بما أفتوا ، فلماذا نقيد حياتنا في القرن العشرين بآراء هؤلاء وقد عاشوا في بيئة غير بيئتنا ، وظروف اجتماعية وسياسة غير ظروفنا ، وتحت نظم حكم غير التي تحكمنا ؟ ولماذا نقدس من لا يستحق التقديس ؟

إن هذا الأمر يحتاج الى صرخة قوية في وجه علمائنا أن يجتهدوا ويبينوا لنا وفق روح العصر حكم الإسلام في القيادة التي هي أهم أمر في جميع الدول وأنظمتها ، ولئن كنت أعتقد أن قحط الرجال قد عم وغلب ، لكني لا أعتقد أن البقية الباقية من الرجال قد ابتليت بقحط الفكر .

ولقائل أن يقول إن شيخ الإسلام ابن تيمية اعتبرها من أعظم واجبات الدين ، وأقول : صحيح وقد قال (إن ولاية أمر الناس

---

(١) الكافي ، حديث رقم (١) من باب في فضل الإمام وصفاته .

Books.Rafed.net

من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها ، فإن بني آدم لا تتم مصالحتهم إلا بالإجتماع لحاجة بعضهم الى البعض ، ولابد لهم عند الإجتماع من رأس ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم ... فالواجب إتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها الى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات) [1] لكن كلامه هذا عن جميع المناصب لا عن القيادة خاصة فدخل فيه إمارة بيت المال والقضاء وغيره من مناصب الدولة . كما أنه أيضاً لم يأت بدليل صريح على هذا ، بل استنبطه استنباطاً بالعقل من أحاديث عامة كما ترى. على أن رأيه لا يمثل كثرة أهل السنة، ولم يذكر كيف تعين القيادة العامة بل ردد نفس المقولات التي مرت بنا من قبل .

○ ○

---

(١) السياسة الشرعية ، نشر دار المتنبي ببغداد ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

Books.Rafed.net

Books.Rafed.net

صياغـة الفكـر السياسـي

ليس بعيب أن نعـترف بسـذاجة الفكـر السياسـي عندنـا أهـل السنة إذا اعتبرنا ما تركه لنـا علمـاء المذهـب منـذ القرنـين الرابـع والخـامس بعـد الهجـرة مـن آراء وأوراق فكـراً سياسـياً ، فهـذا المتوارث المتروك هش متناقض في بعضه ، يشبه الغربال لكـثرة مـا به من ثغرات ، ومن هنا لا أعتقد أنه يصمد أمام نقاش علمي .

والسـبب في أنـني لا أرى في الإعـتراف بهـذا عيبـاً أنـه ركـام موضوع على أساس آراء أشخاص ماتوا لكنهم ما زالوا يحكموننـا من قبورهم رغم بعد الأزمان والمسافات .

ولئن كان هذا الكتاب لا ينصب على هـذا الموضـوع رأسـاً ، إلا أنه سيلمس ـ من بعيد ـ هـذا الفكـر لمسـاً خفيفـاً ، علَّ هـذا اللمس يوقظ عقولاً في نصف غيبوبتها أو تكاد تفيق .

Books.Rafed.net

وكانت نتيجة اعتمادنا على هذا التراث المتروك وتقديسنا له ولواضعيه ، دون تفحص لعلاقتهم بالأنظمة التي حكمتهم ، وبالقوى السياسية الأخرى التي تفاعلت في مجتمعاتهم آنذاك ، أن عجزنا على مر السنين أن نفرز قيادة واحدة ، ليس وا لله هذا فحسب بل أفرزنا ـ ما شاء ا لله ـ أميراً في كل حارة ، ومفتياً في كل شقة ، وإذا الكبير منا والصغير أمام ظاهرة دينية سياسية خطيرة بعضنا يحوقل لها ، وبعضنا يفتح لها فمه عجباً ، ولا يعرف لها سبباً ، ومنا من يعرف أصلها وفرعها لكنه يغمض عينيه ويضع في أذنه طيناً وفي الأخرى عجيناً ويؤثر السلامة .

ومن أراد حل المعضلة استعار لها مفهوم الغرب ، فلم يزد حجمه عن قائد حزب ، أو رئيس تنظيم ، ودار كل أحد في حلقة مغلقة ليس منها مخرج ، وأصبح الكل يسأل نفسه : ما الحل ؟ وما العمل ؟ أليس منا رجل رشيد ؟

والذين أزعجهم هذا الأمر، لم يردوه الى جذوره ، ويبحثوا في الماضي ليفهموا الحاضر، بل علىالعكس تحزب كل منهم لجماعته، وتعصب لموقف شيوخه ـ أحياءً وأمواتاً ـ فازداد طيننا بلة.

Books.Rafed.net

واعتقادي أن الحاضر البائس الـذي نعيشـه مربـوط بالمـاضي ، ولا يمكن فهمه إلا بـالرجوع الى الأصـل والكشـف عـن الجـذر ، ومعالجته من العقم ، لأن المجتمعات البشرية ـ خصوصاً الفكريـة (الإيديولوجية) غملية حيوية ودورة دائمـة كـالدورة الدمويـة ، لا تقف إلا إذا مات البشـر كلهـم ، ومـن هنـا فـإن حـاضر الحركـة الإسلامية ليس إلا امتداداً لماضيها ، بل لا أبالغ إن قلت أنه امتداد للوضع السياسي الذي واجهته الأمة الإسلامية بعد وفـاة المؤسـس الأول عليه وآله الصلاة والسلام .

فـالذين تميزوا بوضـوح الرؤيـة مـن رجـال الجيـل الأول ، وتبلورت لديهم المفاهيم ، تمسكوا بها وبقوا بعيداً عـن السـلطة ، وخضعـوا للتقتيـل والتشـريد والمصـادرة والحرمـان السياسـي والاقتصادي شأنهم شـأن المعـارضين في كـل مكـان كـل بحسـب نظريته ، فنضجت أفهامهم واستوت ، واكتملـت نظريتهـم ، إذ كان عليهم عرضها وتقديمها للناس مزينة بالأدلة العقلية والنقلية ، مكتملة من كل جوانبها أو تكاد ، وظلـوا كذلـك منـذ البدايـة ،

Books.Rafed.net

خصوصاً وأنهم رفضوا كل الحكومات التي ركبت المسلمين ، واعتلت عليهم بسند أم بغير سند .

والذين وصلوا الى السلطة ، واقترفوا ما هو مسطور في تاريخنا بما أملته عليهم السلطة ، لم يحتاجوا الى نظرية سياسية مكتملة الجوانب قوية الأدلة، إذ كانوا قادرين على قمع المخالفين ، ومد النفوذ إلى الخارج ، والتعامل مع الآخرين لا بالحجة والمنطق ، بل بما تتعامل به السلطة ــ أيُّ سلطة ــ مع القوى السياسة التي لا يعجبها حالها .

وتبلور الوضع العام في تاريخنا على هذين المحورين ، وعاش أهل السلطة كما شاؤوا ، وبقي المعارضون كما هم ، وامتدت القرون . ولفترة ما حاول المعارضون أن يفعلوا شيئاً ، ثم تحولوا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري تقريباً الى المقاومة السلبية . وفي الفترة الأولى عبروا عن أنفسهم في شكل انتفاضات وثورات ناضجة وغير ناضجة ، وسلكت السلطات معهم سياسة ذات شقين ، الأول : أبعادهم عن مسرح الحياة السياسية العامة ، بل وحياة المسلمين الغادية مرة بالقهر ومرة بالتشويه ، والثاني :

Books.Rafed.net

تصفية رموز المعارضة تصفية بدنية ، وقمع نهضاتهم على حساب كل المحرمات والمقدسات .

حتى إذا جاء دور كتابة السير والتاريخ ـ بعد قرون من وقوع حوادثه ـ فإذا بمن كتبوه يصيغونه من وجهة نظر رجال السلطة لا وجهة نظر الذين دفعوا الثمن من دمائهم وأرواحهم ، ولذلك مجدوا كل من في السلطة ، وقدحوا في كل من عارضهم ، ولم يعطوا الثورات والإنتفاضات العظيمة حقها من التاريخ ، أو حتى من الإنصاف والأمانة العلمية ، واستمر الحال على هذه الوتيرة الى أن نزل الينا في الأصلاب وورثناه كابراً عن كابر ، واذا بما فشا في أيدينا عبر قرون وقرون يصور لنا من في السلطة على أنهم أهل الحق ، ومن عارضوها على أنهم مارقون خارجون عن الجماعة ، وصدقناهم دون أن ننظر الى تاريخهم نظرة تحليل تدرس الظروف الإجتماعية والسياسية والإقتصادية التي عاش في ظلها هؤلاء الكتاب ، وما تأثروا به ومن أثر فيهم ... الى غير ذلك من عوامل المجتمع التي تتحكم بالضرورة في صياغة التاريخ .

Books.Rafed.net

ولما دارت الدوائر ، ونفذ القانون الإلهي الحضاري في الخلـق ، وأزيح تيار السلطة عن سلطته وانحسر أمام المد الاسـتعماري منـذ أيام المغول حتى زمن الإسـتعمار الحديـث وأفراخـه الموجوديـن في السلطة اليـوم ، واشـتاقت قلوبنـا لأن نعيـد مجـد الخلافـة الغـابر ، وجدنا أنفسنا في مكان المعارضة خارج السلطة ، ووجدنا السلطة في يـد آخريـن ، فأردنـا إزاحتهـم وولّينـا وجوهنـا شـطر ماضينـا المسطور نستفتيه ونسـتلهم منـه أسلوب التعـامل مـع مـن هـم في السلطة ، فلـم نجد في أيدينـا إلا كتابات ونظريـات سـلطانية أو سلطوية ، فوقعنا في أكبر مأزق إذ أن فكر السلطة لا يقاوم بفكـر السـلطة ولا بكتابـات سـلطوية ، مهمـا امتـد البعـد الزمـني بـين السلطتين ! ولم نخرج من مأزقنا بعد .

أما الذين بقوا في المعارضة أربعة عشر قرناً فقد تراكـم لديهـم تراث سياسي وحركي غزير الكثافة ثري الثمار عميـق المفـاهيم ، صاغوه على تؤدة من خلال تجاربهم وهم يعارضون كل الأنظمـة لأنها غير شرعية ، فلما دارت الدوائـر ، وقضـت قوانـين التـاريخ

Books.Rafed.net

الإلهية أن يقع الصدام بينهم وبين امتداد سلطوي زائف ـ أوقل فرخ من أفراخ الإستعمار الحديث ـ كانوا فاهمين جاهزين ، يعرفون كيف يتعاملون مع السلطة وهم أساتذة المعارضة ، فأراحوا هذا الفرخ ، وهرموا من سند ظهره ، ولو كانت الدنيا بأسرها ، لأن التجربة التاريخية عبر القرون الطويلة أكسبتهم مراساً ، وقوت عظمهم . هذا تفسير ما حدث في ايران .

ولا يحسبن أحدكم أنني ألبس تاريخنا قديمه وحديثه ثوب الديمقراطية الغربية باستخدامي لاصطلاحات كالمعارضة والسلطة وغيرها ، فتشابه الإصطلاحات اللفظية لا يعني بحال وحدة الفكر، لأن دلالات الألفاظ شيء ، والإيمان بالنظريات التي تستخدم هذه المصطلحات شيء آخر .

إذا كنا نريد الخروج من هذا المأزق فأول ما علينا أن لا نقبل ما في أيدينا من تراث سياسي على أنه مسلمات لا يرقى إليها الشك، مهماً كانت تمس شخصيات لها مكانة في مذهبنا ، بل إني أرى الشك في هذه الكتابات واجباً من أجل تحرير الإرادة

Books.Rafed.net

والفكر ، ولابد من فحص صلة كتّابها بالقوى السياسية في المجتمعات التي عاشوا فيها ، وعلاقتهم بحكومات تلك العصور ، وتأثرهم بأساتذتهم وشيوخهم ، ووضعهم الإجتماعي آنذاك ، وعقائدهم وآرائهم الخاصة ، والجو السياسي والإجتماعي العام الذي عاشوا فيه، بل ودوافع تأليف الكتب، من أجل أن نقيم رأياً في المادة السياسية التي تعرضها هذه الكتب ، وهل هي موضوعية نزيهة ، أم منحازة قليلاً ، أم متاثرة بعوامل تحول شكنا يقيناً ؟

ثم علينا ونحن نستخلص موقفنا السياسي أن ننزع برقع الحياء ولا نخجل في تحليل وقائع تاريخنا ، مهماً بلغ المشاركون في صنعها من علو المنزلة بعد رسول ا لله صلى ا لله عليه وآله وسلم . فإن أدرنا وجوهنا عن هذه الوقائع يميناً أو شمالاً وقلنا تلك أمة قد خلت ، فعلينا إذن أن نجيب على من يسألنا لماذا إذن تطلبون إعادة مجد هذه الأمة ، وتتمسكون بها وتتخذونها نموذجاً ؟

وإن كنا نعتبرها مثالاً لنا ، ونؤمن حقاً ـ لا مجرد كلام ـ أنها كانت أمة من البشر ، ونعيب على غيرنا عصمتهم للبشر ، فلا

Books.Rafed.net

مفر إذن من أن نعرض تصرفاتهم وممارساتهم على الحق فنعرف أهله به ، لا أن نقدس أشخاصاً ـ وإن كانوا قادة ـ ثم نعتبر كل ما صدر عنهم من قول أو فعل أو حتى سكوت ، حقاً لا يأتيه الباطل من أي مكان !

نحن في هذا أمام خيارين إما أن ننظر لأفعال وأحداث ماضينا نظرة علمية ترشدنا الى الحق ، أو أن نبقي على نظرتنا العاطفية فلا نهتدي إلا الى امتداد الأخطاء ، واتصال حلقاتها ، وتراكم كمِها وكيفها .

فنحن نقرأ مثلاً في كتب السير والتاريخ أن الخلافة ــ وهي مثلنا الأعلى ـ انقلبت ملكاً عضوضاً منذ سنة إحدى وأربعين بعد الهجرة ، أما لماذا انقلبت ؟ فهذا ما لم نقف إزاءه بجرأة وشجاعة ، أو حتى بمنطق وعقل ، وسكوتنا عن نقد أنفسنا شجع المستشرقين والمغرضين على أن يغمس كل منهم مغرفته في تاريخنا، ويستخرج منه ما يحلو له ويراه بعينه وعين قومه ، مبتوراً عن سياق واقعي معترف به من قبل أهله ، فأجابوا هم على ما تساءل عنه أبناؤنا والعقلاء منا ، فانفتح بذلك علينا باب خطر عظيم .

Books.Rafed.net

وأعجب من العجب أولئك الذين عز عليهم الإعتراف بأن الخلافة الراشدة انقلبت وانتهت بعد ثلاثين عاماً فقط من وفاة المؤسس الأعظم ، فألحقوا بنظام الإسلام ممارسات النظامين الأموي والعباسي وأفعال الملوك والسلاطين ، ودافعوا عن ذلك دفاعهم عن الإسلام نفسه ، فاختلط الأمر على من جاء بعدهم . وقد تكون نوايا هؤلاء حسنة ، لكن طريقة معالجتهم للأمور لم تكن عملية ولا إسلامية بل عاطفية لجأت في كثير من الأحيان الى تحسين كل قبيح ، جهلاً بوسائل الدفاع ، فعانت الأمة الإسلامية وخاصة الأجيال التالية من منهجهم هذا .

إن التحولات الإجتماعية والسياسة في أي مجتمع لا تقع في يوم وليلة ، بل هي نتيجة عملية اجتماعية لها قوانينها وضوابطها التي وضعها الخالق وحتمها ، ثم اكتشفها المخلوق ودونها وصاغها في شكل علم يدرس ويستفاد به . إذ الإسلام إلهي من حيث النظرية ، بشري من حيث التنفيذ ، وسقوط الخلافة على يد معاوية أمر بشري مرتبط بالتنفيذ لا بالإسلام من حيث هو

Books.Rafed.net

نظرية ربانية ، فلماذا نخجل من تحليل وقائع السقوط بصراحة ؟ وهو الحدث الذي تضافرت فيه عدة عوامل على مدى حقبة من السنين فأنتجت ما هو مسطور في كتبنا ، حيٌّ أمام أعيننا .

وعادة ما يحدث في الثورات ـ والإسلام نظرية ثورية بلا شك ـ أن يقع الإنحراف بعد وفاة المؤسس ولو خفيفاً كالشعرة ، أو بدرجة واحدة غير ملحوظة ثم إذا به ـ إن أهمل ـ ما يفتأ يتسع يوماً بعد يوم حتى يصل الى مائة وثمانين درجة ، فإذا بنا نرى الإتجاه المعاكس تماماً ، لكنه يحمل اسم النظرية الأولى .

هذه العملية التحولية هي ما لا بد وأنها حدثت ـ وفق قوانين التاريخ والإجتماع ـ في فترة الثلاثين عاماً منذ وفاة المؤسس الأعظم عليه وآله الصلاة والسلام وحتى انقلاب معاوية . ثم من بعدها لم تقم لنا دولة نموذجية ، ولم تؤثر عنا نظرية سياسية معقولة .

والإعتقاد بأن الجيل الأول منزه عن الخطأ أثناء التنفيذ أو العملية الإجتماعية البشرية ، أو أنهم خلوا من انفعالات النفس

Books.Rafed.net

الإمارة بالسوء من حب للإمارة والتنـافس عليهـا ، وتحـيز لـذوي قربى أو صحبة ، ومخالفة لأحكام الشرع ـ أحياناً ـ الى غـير ذلـك من مقتضيـات البشـرية قـولٌ ينـاقض سـيرتهم المدونـة ، وأفعـالهم وأقوالهم المأثورة ، وليس في ذكره اليوم واستخلاص النتائج منه ما يشـينهم أو يشـيننا ، مـادام القصـد علميـاً ، والهـدف مشـروعاً ، وفرق ـ بالطبع ـ بين هذا المنهج وبين منهج حثو التراب في وجـوه الناس بلا رؤية أو دراية .

لقد كنا خير أمة أخرجت للناس ، فـاذا بخـير أمـة يلـي أمرهـا البيت الذي ظل يقاتل مؤسس الدولة ورسالته حتى آخـر وقـت ، فإذا بدفة الحكم في يد مـن لعنهـم الرسـول صلـى ا لله عليـه وآلـه وسلم كمروان بن الحكم ، ومـن أبـاح دمـه كـابن أبـي سـرح ، وأخيراً تربع على عرشها من لـو وزن المسـلمون آنـذاك في مـيزان الكفاءة والخلق والرجولة لكان أقلهم وأحقرهم كيزيد بن معاوية.

ولم تكن ممارسـات هـؤلاء وأشـباههم إلا ثـورة مضـادة علـى الإسلام المحمدي ، والنظرية الصافية .

Books.Rafed.net

ومتى ؟ فقط في غضون ثلاثين عاماً !!

نحن أمام حالة اجتماعية وسياسية ـ وا لله ـ جديرة بالدراسة ، إذ المفروض في نظرية قوية كالإسلام منزلة من عند ا لله أن تستمر ـ إذا طبقت ـ قرناً على الاقل أو قرنين أو أكثر ، قبل أن يدب في أتباعها الوهن .

وما حدث من التدهور السياسي السريع يضعنا أمام خيارين أثناء تحليل الأحداث لا ثالث لهما : إما أن نظرية الاسلام السياسية لم تطبق أصلاً ، واما أن يكون ما طبق ـ بقطع النظر عن صوابه وخطئة ـ واعتبرناه نظرية الإسلام السياسية على درجة من الضعف ، بحيث لم يستطع معها ملاءمة بقية جوانب النظرية ، والحفاظ على تماسك الدولة أكثر من ثلاثة عقود من السنين .

وسواء كنا مع الرأي الأول أم الرأي الثاني ، أم ملنا الى غير ذلك ، فإن هذا التحول السياسي الضخم في تاريخنا ينبغي أن نحلله وفق مبادئ الإسلام نفسه ، وقواعده التي وضعها في هذا الشأن ، وحسب قوانين هذا العلم وسنن التاريخ ، لكي نعرف

Books.Rafed.net

رأسنا من أرجلنا بدلاً من أن نعيش كقطع الفلين فوق ظهر الماء ، يأخذها الموج الى حيث يريد في اتجاهات متعاكسة دون أن تملك من أمر نفسها شيئاً .

على أنني أدرك تماماً أن هذه المهمة صعبة للغاية في زمن نرى فيه ما نرى، وأهون نتائجها أن يرمى المضطلعون بها بشتى التهم، وربما يهدر دمهم ظلماً ، لكن الأصعب والأخطر أن نسكت ونتعامى ونترك الناس حيرى ، فهذا ذنب عظيم .

والسؤال الذي يوجع رأس الباحثين والمتحركين الآن هو :

كيف يتم تعيين القيادة في الحركة الإسلامية ؟ وإن كان لدينا ـ نحن أهل السنة ـ منهج واضح في هذا فما هو ؟ وكيف طبقه الجيل الأول ؟

وان لم يكن لنا هذا بضاعة فما هي النظرية ، وما هو المنهج الذي نستطيع استنباطه من ممارسات الجيل الأول في هذا الشأن ، في ضوء السير والتاريخ المكتوب باعتبار هؤلاء قدوة قد نقتدى بها في غياب النص ؟

Books.Rafed.net

والجواب على هذا السؤال يكون بطريقتين :

الأولى : أنـه لا يوجـد في ذلـك نـص محـدد ، وأن الأسـلاف اجتهدوا ، ومنهم من أصاب ومنهـم مـن أخطـأ وسـبب كارثـة ، والكل مأجور مهما فعل . وهذا مذهب ابـن خلـدون وابـن كثـير وغيرهما من المؤرخين إذ أقروا بأن (**كله تمـام**) وأن جميـع النـاس حتى هارون الرشيد وبعض أبنائه كانوا على صواب ، وأن المأثور عن الأسـلاف مـن ممارسـات مـن لـدن وفـاة نـبي ا لله عليـه وآلـه الصلاة والسلام حتى بني العباس هو السياسـة الشـرعية الـتي علـى المسلم أن لا يترك التمسك بعروتها .

وهذه الإجابة تفضي بنا الى نتيجة حتمية هي أن الإسلام ليـس فيه نظام سياسي محدد ، ولا القيادة فيه يمكن تعيينهـا بدقـة ، وأن أفعال الجيل الأول بما فيها خاصة من قتل بعضهم للبعض ، وسـبي للمسـلمات ، وهـدم للكعبـة ، وهتـك لحرمـات الصحابيـات واغتصابهن ، وقتل وسبي لأبناء رسول ا لله صلـى ا لله عليـه وآلـه وسلم كان حلالاً مشروعاً ، ومن فعلـوه مـأجورون وإن أخطـأوا في ذلك .

Books.Rafed.net

الثانية : أن الإسلام له في ذلك نظـام محـدد لكـن الجيـل الأول غلبته النفس البشرية ، فخالف مـا هـو مرسـوم في هـذا الصـدد ، اقتضاء لما عليه الفطرة البشرية ، فارتكب البعض خطأ ، وانحرفـوا عن الدستور شعرة ثم مـا لبـث هـذا الإنحـراف أن اتسـع وتعـاظم حتـى أفلـت زمـام الأمـور مـن أيديهـم ، وأن التحـول السياسـي والإجتماعي الذي طرأ على الدولة الإسلامية الوليدة فجعل رأسها مكان أرجلها ، إنمـا وقـع تدريجيـاً نتيجـة أخطـاء أوليـة تراكمـت عليها أخطاء فأخطـاء ، وبمـرور الزمـن أدت هـذه التراكمـات الى سقوط الخلافة .

وهذه الإجابـة تقودنـا الى تحديـد الإنحـراف ، وبالتـالى معرفـة الصواب، ومن بعد إصلاح المسيرة البشرية خلال العملية التنفيذية في العصر الحاضر .

لكـن بـألف حسـرة وأسـف راقـت الإجابـة الأولى للكـثرة وأعجبتها على مـا فيهـا مـن جنينيـة في التفكـير ومخالفـة للمنطـق والعقـل ، ومـن هنـا فقـدت الكـثرة المنهـج التحليلـي السـليم ،

Books.Rafed.net

وانساقت وراء هزات العواطف ـ ومشايخنا أساتذة مهرة في هزهـا ـ ثم خطت خطـوة أكـبر فكفـرت كـل مـن حـاول أو يحـاول أن يجيب إجابة مختلفة عن اجابتهـا ، وهكـذا ظلـت الأمـة دون فكـر محدد تريد أن تصلح حاضرها في الوقت الـذي تخجـل فيـه مـن أن ترفع إصبعها الى ما كان من ماضيها يستحق الإصلاح .

وانتقلت وجهة النظـر العاطفيـة مـن صلـب الى صلـب حتـى وصلت عصرنا الحاضر ، فإذا بها تنعكس على الجو الحركي العـام الذي يضم كل العاملين للإسلام فتؤثر فيه على نحو كبير ، حائلـة دون تحكيم المنطق والعقل .

وهكـذا دخلـت الحركـة الإسـلامية دوامـة المتناقضـات ، فلـم تنجح في إسقاط طاغوت أو اجتياز عقبة لسبب بسيط هو أنها في الوقت الذي تمسكت فيه أشد التمسك بتاريخنا السياسي القديم ، واعتبرت أخطاء شخصياته منجزات ومفاخر إسلامية عظيمة ، إذا بها تريد مواجهة الأنظمة المعاصرة وهي أيضـاً متناقضـة تراكمـت فيها الأخطاء ، علاوة على فسقها وكفرها ، فلما نظرنـا فيمـا في

Books.Rafed.net

أيدينا من عُدة سياسية ، وتراث حركي وجدناه هشاً لا يقوم على أساس متين، ففشلنا في إسقاط النظم ، وأسقطنا بدلاً منها حرمة المسلمين ، فكفرنا كل من لفت نظرنا الضعيف الى مخالفة ـ ولو صريحة ـ لمبادئ الإسلام الذي نطالب باقامته .

وقد يكون من الأجمل استعراض الأحداث السياسية الكبرى في تاريخنا ـ أن كنا خير أمة ـ مما هو متصل بموضوع واحد فحسب من موضوعات علم السياسة والقانون الدستوري ، وهو في نفس الوقت موضوع الكتاب ، أعني (القيادة) وتعيينها ، لنرى كيف أثرت هذه الأحداث ، واستولت على وجدان الأمة وعقلها الباطن، وكمنت فيه لتحكم فيما بعد سلوك أفرادها ، وتوجه تصرفاتهم ، ولننظر أيضاً كيف وقف علماؤنا تجاهها ، وما استنبطوه منها من أحكام ، واستخرجوه من وقائعها من مواد سياسية ودستورية فرضوها على المسلمين ، وأمروهم بتقديسها على أنها (إسلام) .

Books.Rafed.net

القيادة في ضوء ممارسات الجيل الأول

تعتبر فترة الخلافة الراشدة عندنا أهل السنة الفترة الذهبية للإسلام بعد انقطاع الوحي بوفاة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، ومن ثم نولي وجوهنا شطرها ، ونتخذها نموذجاً وقدوة .

والذي لا شك فيه هنا أن تلك الفترة كانت بالفعل كذلك ، ومنزلتها في الفكر السياسي عند المسلمين جميعاً لا تنكر ، إذ أن وقائعها بحلوها ومرها هي التي صاغت الفكر السياسي عند كل الفرق الإسلامية بلا استثناء .

لكننا ـ حتى الآن ـ لم ننظر الى أحداث تلك الفترة نظرة تحليل موضوعية ، بل قدسناها ، وبنينا على أساسها معتقدات ، بصرف النظر عن موقف الإسلام ـ دخلت في صلب فكرنا السياسي

Books.Rafed.net

الديني ، وشكلت أغلب ما لدينا من بضاعة في هذه السوق ، بل ليس بمبالغة أن نقول : إن ما لدينا اليوم أصداء لما وقع آنذاك ، رسخت في عقولنا الباطنة ، وغلبت على بؤرات شعورنا ، رغم بقائها في هوامشه .

ونحن من هذه العقائد على قسمين : قسم مطلع يقرؤها ويدرسها كنموذج أمثل ، فهو يعتقدها عن وعي، ويذب عنها بربع أو ثلث علم. وقسم آخر يستمع دون تفحص ، ويردد بلا وعي . وكلا الفريقين عاطفي في موقفه وتصرفه وشعوره توجهه قداسة غيرحقيقية لحوادث الجيل الأول بعد وفاة المؤسس الأعظم.

على أننا إذا كبحنا جماح العاطفة ـ قليلاً ـ وقلنا هلم نبحث الموضوع بطريقة الباحثين عن الحق، انتهينا الى نتائج تخالف ـ دون ريب ـ تلك التي انتهينا إليها ونحن نتحدث تحت تخدير العاطفة .

ولئن كان الإسلام يذم الموقف الأول من القضايا الهامة ، ويحض على تبني الموقف الثاني ـ خصوصاً في قضايا سير الأوائل ، وقوانين الحضارة والعمران والسياسة والإجتماع ـ ويخاطبنا مئات

Books.Rafed.net

المرات (**أفلا تعقلون ...**) (**أفلا تنظرون ...**) (**أفلا يتدبرون ...**) الى آخر ما نحفظه جميعاً من كتاب الله ، إلا أن الإتجاه السائد يتجه إلى غير هذا . ومع ذلك ، فهناك قليل ممن يريدون أن يسبحوا ضد هذا التيار ، استجابة للنداء القرآني الموجه الذي يضيىء لنا لجج البحر الذي تعالت أمواجه ، وصارت ظلمات بعضها فوق بعض . ورجائي من الكثرة أن تصبر علينا ونحن نسبح سباحة الباحثين عن الحقيقة حتى نتم شوطنا ، فإن أعجبتهم سباحتنا فلينزلوا معنا إلى البحر ليصدوا التيار، وإن لم تعجبهم فليتركونا في حرية علّنا نخرج لهم بلؤلؤة تنفعهم ، أو درة تضيىء لهم ولو بشعاع ، وليضعوها في متحفهم الى وقت قد يعم فيه الظلام فيبحثون فيه عن بصيص ضوء ، ويذكروننا حينئذ.

تعالوا إذن نستعرض أكبر الوقائع التاريخية التي سجلها لنا تاريخ العهد الذهبي في موضوع القيادة ، ونعيد قراءتها ، بعيداً عن العواطف ، قراءة مجردة ، وننظر ما تؤدي اليه من نتائج .

Books.Rafed.net

١ ـ بيعة أبي بكر (رض)

توفي رسول ا لله عليه وآله الصلاة والسلام ، وانشغل بتغسيله وتجهيزه ودفنه بعض أهله كعلي بن أبى طالب ، وعمه العباس وولديه ، وبعض مواليه . وفي أثناء ذلك ، انشغل قسم آخر من الصحابة بحسم مشكلة القيادة على نحو رواه عمر بن الخطاب (رض) فقال : (فلا يغرن أمراء أن يقول أن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، فقد كانت كذلك غير أن ا لله وقى شرها ، وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر ، وإنه كان من خبرنا حين توفى ا لله نبيه صلى ا لله عليه وسلم أن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا في بيت فاطمة ، وتخلفت عنا الأنصار بأسرها ، واجتمع المهاجرون الى أبي بكر ، فقلت لأبي بكر : انطلق بنا الى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم ، فلقينا رجلان صالحان قد شهدا بدراً ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلنا نريد إخواننا من الأنصار ، قالا فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم ، فقلنا وا لله لنأتينهم وهم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة

Books.Rafed.net

وإذا بين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا ؟ قالوا سعد بن عبادة، فقلت : ما شأنه ؟ قالوا : وجع ، فقام رجل منهم فحمد ا لله وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهط نبينا ، وقد دفت إلينا من قومكم دافة . فلما رأيتهم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويغصبونا الأمر وقد كنت زورت في نفسي مقالة أقدمها بين يدي أبي بكر ، وقد كنت أداري منه بعض الحد ، وكان هو أوقر مني وأحلم ، فلما أردت أن أتكلم قال : على رسلك ، فكرهت أن أعصيه ، فقام فحمد ا لله وأثنى عليه فما ترك شيئاً كنت زورت في نفسي أن أتكلم به لو تكلمت إلا قد جاء به أو بأحسن منه ، وقال : أما بعد يا معشر الأنصار فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وأنتم له أهل ، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لحيٍّ من قريش ، وهم أوسط داراً ونسباً ، ولكن قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، فأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح ، فلما قضى أبوبكر كلامه قام منهم رجل فقال : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، منا

Books.Rafed.net

أمير ومنكم أمير يا معشـر قريـش ، فـارتفعت الأصـوات ، وكـثر اللغط فلمـا أشـفقت الإختـلاف قلـت لأبـي بكـر : أبسـط يـدك أبايعك ، فبسط يده فبايعته ، وبايعـه المهـاجرون والأنصـار ، ثـم نزونا على سعد حتى قال قائلهم قتلتم سعد بن عبادة ، فقلت قتل ا لله سعداً . وإنا وا لله لم نجد أمـراً أقـوى مـن مبايعـة أبـي بكـر ، خشينا إن فارقنا القوم و لم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنـا بيعـة ، فإمـا أن نتابعهم على ما نرضى أو نخالفهم فيكون فساد) [1]

وقد روى المؤرخون قالوا :

(اجتمعت الأنصـار في سـقيفة بـني سـاعدة ، وتركـوا جنـازة رسول ا لله يغسله أهله ، فقالوا نولي هذا الأمر بعد محمد سعد بـن عبادة ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض . . . فحمد ا لله وأثنى عليه ، وذكر سابقة الأنصار في الديـن ، وفضيلتهـم في الإسـلام ، وإعزازهم للنـبي وأصحابـه ، وجهـادهم لأعدائـه حتـى اسـتقامت

---

(١) تـاريخ الطـبري : ٢ / ٤٤٦ ـ ٤٤٧ ، مصـر ، ١٩٣٩ . صحيـح البخـاري : كتاب الحدود ، باب رجم الحبلي من الزنا .

Books.Rafed.net

العرب ، وتوفي الرسول وهو عنهم راض (أي سعد) استبدوا بهذا الأمر دون الناس، فأجابوه بأجمعهم: أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول ولن نعدو ما رأيت ، نوليك هذا الأمر) [1]

سمع أبوبكر وعمر (رض) بذلك فأسرعا الى السقيفة ، وتكلم أبو بكر (رض) فحمد ا لله وأثنى عليه ، ثم ذكر سابقة المهاجرين في التصديق بالرسول دون جميع العرب ، وقال (فهم أول من عبدا لله في الأرض ، وآمن بالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم) ثم ذكر فضيلة الأنصار وقال : (فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا نقضي دونكم الأمور .

فقام الحباب بن المنذر وقال : يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم ، فإن الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجتريء مجتريء على خلافكم ، ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم أمركم ، فإن أبى هؤلاء ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

---

(1) الطبري : ٢ / ٤٥٦ .

Books.Rafed.net

فقال عمر : هيهات لا يجتمع اثنان في قرن . . . وا لله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولي أمرهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدلٍ بباطل ، أو متجانفٍ لإثم ، أو متورط في هلكة ؟

فقام الحباب بن المنذر وقال : يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوا عليكم ما سألتموهم فأجلوهم عن هذه البلاد، وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم وا لله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من لم يكن يدين به ، أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، أما وا لله لو شئتم لنعيدنها جذعة .

قال عمر : إذن يقتلك ا لله . قال بل إياك يقتل .

فقال أبو عبيدة : يا معشر الأنصار إنكم إن كنتم أول من ناصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير .

Books.Rafed.net

فقام بشير بن سعد أبو نعمان بن بشير فقال : يا معشر الأنصار إنا وا لله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا ، فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ، فإن ا لله ولي النعمة علينا بذلك ، ألا إن محمداً صلى ا لله عليه وسلم من قريش وقومه أحق به ...

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض : وا لله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة ، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر ، فقاموا إليه فبايعوه ، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم) [1]

وفي رواية أخرى :

---

[1] الطبري : ٢ / ٤٥٦ ـ ٤٥٨ . السيرة النبوية لابن هشام : ٤ / ٣٣٧ ـ ٣٣٩، القاهرة ١٩٣٧ .

Books.Rafed.net

(فقال أبوبكر هذا عمر وهذا أبوعبيدة فأيهما شئتم فبايعوا ، فقالا : وا لله لا نتولى هذا الأمر عليك ... وقام عبدالرحمن بن عوف وتكلم فقال : يا معشر الأنصار إنكم وان كنتم على فضل، فليس فيكم مثل أبي بكر وعمر وعلي ، وقام المنذر بن الأرقم فقال : ما ندفع فضل من ذكرت ، وإن فيهم لرجلا لو طلب هذا الأمر لم ينازعه فيه أحد ، يعني علي بن أبي طالب) [١]

ولما كثر اللغط ، واشتد الإختلاف قال عمر لأبي بكر (رض) أبسط يدك أبايعك ، وتمت البيعة .

وفي رواية أن عمر (رض) قال مهدداً الناس إذا أخرجوا القيادة عن قريش (وا لله ما يخالفنا أحد إلا قتلناه) [٢]

ورفض سعد بن عبادة بيعة أبي بكر وقال حين أرسلوا اليه ليبايع (أما وا لله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل ، وأخضب

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٠٣ ، النجف (العراق) ١٣٥٨ هـ والموفقيات للزبير بن بكار : ص ٥٧٩ ، نقلاً عن معالم المدرستين للسيد مرتضى العسكري : ١/ ١١٧ ، ايران ١٤٠٦ هـ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام : ٤ / ٣٣٨ .

Books.Rafed.net

سنان رمحي ، وأضربكم بسيفي ما ملكته يـدي ، وأقـاتلكم بـأهل بيتي ومن أطـاعني مـن قومـي ، فـلا أفعـل وأيـم ا لله لـو أن الجـن اجتمعت لكم مع الأنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي وأعلـم ما حسابي) فكان سعد لا يصلي بصلاتهـم ، ولا يجمـع معهـم ، ويحج ولا يفيض معهـم بإفـاضتهم [١] وبقـي كذلـك حتـى توفـى أبوبكر وولي عمر . وقيل إن عمر أرسل اليه رجلاً في خلافة أبـي بكر يدعوه الى البيعة فإن أبي فليقاتله ، فلما أبي سعد البيعة رمـاه بسهم فقتله . [٢]

وأما من رفضوا بيعة أبي بكر فتحصنوا في بيت السيدة فاطمـة الزهـراء وكـانوا جماعـة مـن بـني هاشـم ، وجمـع مـن المهـاجرين والأنصار بزعامـة الإمـام علـي (ع) والعبـاس بـن عبدالمطلـب ، وسلمان الفارسي ، وعمار بن ياسر ، والبراء بـن عـازب ، وأبـي ذر الغفاري ، وأبي بن كعب ، وغيرهم ، رضي ا لله عنهم .

---

(١) الطبري : ٢ / ٤٥٩ .

(٢) أنساب الأشراف للبلاذري : ١ / ٥٨٩ ، مصر ١٩٥٩ م ، العقد الفريد لابـن عبد ربه : ٤ / ٢٦٠ ، مصر ١٩٤٤ م .

Books.Rafed.net

وقد روت هذه الواقعة كتب السير والتاريخ والصحاح والمسانيد، ومنهم من صرح بما جرى فيها ومنهم من تعامى عنها. وممن صرح ببعض ما جرى البلاذري فقال (بعث أبوبكر عمر بن الخطاب الى علي رضي الله عنهم حين قعد عن بيعته وقال : ائتني به بأعنف العنف ، فلما جرى بينهما كلام فقال (أي علي) أحلب حلباً لك شطره ، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غداً) [١]

وذكر المؤرخون أن أبابكر أرسل جماعة ، منهم عبدالرحمن بن عوف ، وخالد بن الوليد ، برئاسة عمر بن الخطاب (رض) ليخرجوهم من بيت فاطمة ، وقال لهم ان أبوا فقاتلوهم ، فأقبل عمر بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار ، فلقيتهم فاطمة فقالت : **يابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا ؟ قال نعم ، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة** [٢] واقتحموا دار سيدة نساء العالمين بنت

---

(١) أنساب الأشراف : ١ / ٥٨٧ .

(٢) العقد الفريد : ٤ / ٢٦٠ ، تاريخ أبي الفدا : ١ / ١٥٦ ، مصر ١٣٢٥ هـ ، الطبري : ٢ / ٤٤٣ ، أنساب الأشراف : ١ / ٥٨٦ ، الرياض النضرة للمحب الطبري : ١ / ٢١٨ ، مصر ١٩٥٣ م . تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٠٥ وفيه أن عمر صارع علياً بسيفه فصرعه وكسر سيفه .

Books.Rafed.net

رسول ا لله عليه وآله الصلاة والسلام لملاحقة المعارضين وقتالهم وتحريقهم بالنار حتى يبايعوا أبابكر قسراً !

وبقي علي وبنو هاشم لم يبايعوا أبا بكر ستة أشهر حتى توفيت السيدة فاطمة عليها سلام ا لله غاضبة على الشيخين ، وانصرف الناس عن علي (ع) فضرع الى مبايعة أبي بكر .

هذا ما هو مسطور في تراثنا عن أول أزمة سياسية ودستورية واجهتها الدولة الوليدة يوم وفاة مؤسسها . فلو صحت هذه الروايات ، وربطنا بين ماضينا وحاضرنا ، استطعنا أن نرى بصماتها مطبوعة واضحة في حياة المسلمين عامة ، لأنها شكلت ـ وما زالت ـ خلفية الشعور لدى جميع المسلمين .

وإذا نظرنا الى هذه الأزمة الدستورية بعين السابحين ضد التيار، الباحثين عن منهج سياسي في الإسلام ، رأينا فيها ما لا يراه أرباب العواطف الموجهة . فأول ما نراه فيها أن بيعة أبي بكر (رض) لم تتم في ظروف عادية بل تمت دون أن يعلم بها الناس جميعاً ، أو على الأقل جميع أكابر الصحابة ، أو حتى زعماء الإتجاهات السياسية الموجودة في المجتمع كلهم ، فقد اجتمع في

Books.Rafed.net

السقيفة نفر من الأنصار ليبت في أمر القيادة في غياب الآخرين ، ثم لحق بهم نفر من المهاجرين لينافسوهم ويمنعوا القوة السياسية الأولى من الإنفراد بالقيادة . ولم يعلم بالأمر أكبر وأهم قوة سياسية ودينية آنذاك وهي بنو هاشم وآل بيت القائد المؤسس ، بعد أن انتهز هذا النفر القليل من المهاجرين والأنصار انشغالهم بتغسيل وتكفين الرسول القائد، وتم ما تم دون إعلام الناس، وبغير انتظار لتهدأ مشاعر الأمة ، وقد حلت بها كارثة غياب رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام ، القائد الذي لا يملأ فراغه أحد .

فالسياق العام الذي تمت فيه هذه البيعة التي حددت القيادة بعد رسول الله لم يكن طبيعياً ، ولا يمكن أن تستريح له أنفس الناس باحثين وغير باحثين .

ثم إن القوم لم يتفقوا على مرشح بعينه في السقيفة (فكثر القول حتى كاد يكون بينهم في السقيفة حرب ، وتوعد بعضهم بعضاً ، فوثب عمر فأخذ بيد أبي بكر) [1] بل إن في رواية عمر نفسه ما يدل على أن بيعة أبي بكر (رض) تمت في ظروف غير

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام : ٤ / ٣٣٨ ، الرياض النضرة : ١ / ٢١٤

Books.Rafed.net

طبيعيـة ، وبطريقـة غـير طبيعيـة ، وذلـك حـين قـال (فـارتفعت الأصوات وكثر اللغط) أي أنه ـ كما رأينا ـ بعـد عـرض مرشـح الأنصار للأسباب التي اعتقد علىأساسها استحقاق حزبه بالقيادة، ثم عرض أبي بكر (رض) لأحقية المهاجرين بها ، ولم تسفر هـذه المداولات عن اتفاق الموجودين وهـم نفـر قليـل مـن الأمـة علـى شخص يتصدى للقيادة ، بل ارتفعـت الأصـوات تتنـازع، فـانتهز عمر (رض) هذا الفرصة وحسم الأمر بالطريقة الـتي تحسـم بهـا الصفقات والمزادات في الأسواق ، وهو ما أكسبته المهنة إيـاه ، إذ كلنا يعرف أنه (رض) كان سمساراً يعقد الصفقات في الأسواق ، ومال معه المؤيدون لأبي بكر، ووجد الآخرون أنفسهم في مأزق، فبايع منهم من بـايع ورفـض مـن رفـض . ولذلـك اعتبرهـا عمـر (رض) نفسـه فلتـة غـير أن ا لله وقـى شـرها [1] كمـا اعتبرهـا الضحاك بن خليفة (فلتة كفلتات الجاهلية) [2]

---

[1] الطبري : ٢ / ٤٤٦ .

[2] نفس المصدر : ٢ / ٤٥٩ .

Books.Rafed.net

ولما رأى أبوبكر (رض) نفسه أنه لا إجماع على أحد من الموجودين ، عرض تقسيم السلطة بينهم وبين الأنصار فقال (نحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور) [١] وهو ما رفضته الأنصار ، ورأت المشاركة المتساوية في الحكم (منا أمير ومنكم أمير) .

ولأن السياق الذي تمت فيه البيعة ، والطريقة التي حسمت بها القيادة لم تكن مقنعة ، ندم أبوبكر (رض) على تقمصها حين حضرته الوفاة اقتضاء لطبيعة النفس البشرية ، وتمنى لو سأل رسول ا لله عليه وآله الصلاة والسلام عمن ينبغي أن تؤول له القيادة بعد وفاته [٢] فإن صحت هذه الرواية فهي دليل على أنه هو نفسه كان في شك من أحقيته بالقيادة بعد رسول ا لله عليه وآله أفضل الصلاة والسلام .

---

(١) نفس المصدر : ٢ / ٤٥٨ .

(٢) نفس المصدر : ٢ / ٦١٩ ـ ٦٢٠ .

Books.Rafed.net

ثانياً : إن الذين اجتمعوا في السقيفة ـ إن صحت روايات المؤرخين ـ لم يضعوا الإسلام ولا نظرية الدولة وفكرها ، ولا حتى مصلحة الأمة العامة هدفاً أمامهم وهم يحسمون قضية القيادة ، بل قدم كل منهم نفسه على أنه (مهاجر) و (أنصار) ثم وصل الأمر ببعضهم أن طالب بطرد المهاجرين من المدينة ، مثلهم مثل زعماء الجاهلية قديماً وحديثاً . فمن نابوا عن قريش تحدثوا باسمها وبمنزلتها في الإسلام ، ومن مثلوا الأنصار سلكوا نفس السبيل ، ثم برزت في السقيفة الأحقاد القبلية القديمة التي كان من المفروض أنها دفنت تحت الأقدام في ظل الإسلام وتعاليمه ، وإذا بالأوس تنضم الى قريش نكاية في الخزرج وزعيمها ، لأنها خافت أن تؤول القيادة اليها فتسبقها في الفضل .

ثالثاً : إن رأي الأمة أو الجمهور لم يستطلع أصلاً في مسألة تعيين القيادة ، وإنما قرر مصير الأمة كلها نفر قليل ـ مائة أو أقل أو أكثر قليلاً بقدر ما تتسع السقيفة ـ تزعم النقاش منهم خمسة أفراد فقط ، وقرروا مستقبل الشعب والدولة .

Books.Rafed.net

وقد يصرخ أحدنا غاضباً ويقول : يا أخي ، لقد كانوا أهل عقد وحل ، فأقول : ألم يكن في الناس غيرهم أهل عقد وحل ؟ فلماذا لم ينتظروا إخوانهم ليشاركوهم الرأي ؟ ثم كونهم أهل عقد وحل ليس عليه دليل من كتاب أو سنة، لأن هذا الإصطلاح من نحت مشايخنا ومؤرخينا الذين كتبوا في هذا الموضوع بعد قرون لتبرير هذه الوقائع ، والأولى بنا أن نعيد النظر في هذه التحديدات والآراء السلطانية الموروثة التي نرددها بلا وعي .

والخلاصة أن السلوك الذي سلكته القدوة في السقيفة من تجاهل لرأي الناس لأنهم رعاع وغوغاء ، كما وصفهم بذلك عبدالرحمن بن عوف [1] وعدم اعتبار رأيهم ، والإكتفاء برأي النخبة في حسم القضايا المصيرية، وعدم إعطاء كل فرد حقه في التعبير عن رأيه بحرية .. كل هذا ورثناه وتشربته أنسجة مجتمعاتنا سداتها ولحمتها ، وانسكب في أصلابنا جيلاً بعد جيل ، فإذا بكل أمورنا تقررها طغمات تدبر أنظمة ، أو نخبات تقود أحزاباً

---

[1] الطبري : ٢ / ٤٤٥ . ابن هشام : ٤ / ٣٣٦ :

Books.Rafed.net

ومنظمات ، دون أخذ بما يجيش في نفوس القاعدة العريضة التي يقوم عليها بناء المجتمع .

إن ما حدث في السقيفة ـ إذا نظرنا إليه بعين الخائضين في السياسة وأردنا تقديمه إلى الناس في القرن العشرين ـ لا يمكن اعتباره إجراءً سليماً يتفق ومباديء الإسلام السياسية ، لأنه لم يعط صوتاً لكل مواطن بل أعطى صوتاً لكل قبيلة حضرت ، دون معاملة بقية القبائل والقوى السياسية الأخرى بنفس المعاملة ، ومن ثم تجاهل القطاع الأعرض من الشعب ، وحرمهم حقهم في المشاركة في اتخاذ القرار واختيار القيادة .

رابعاً : إذا أخذنا بشروط الأهلية التي ذكرها كل من أبي بكر وعمر (رض) لمن ينبغي أن يكون في منصب القيادة بعد رسول الله عليه وآله السلام ، وجدنا أنها لم تكن تنطبق على أي منهما قدر انطباقها على آل البيت ، فلقد قال أبوبكر (رض) (وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لحي من قريش وهم أوسط داراً ونسباً) [1] وقال (أول من عبدا لله في الأرض وهم أولياؤه

---

[1] الطبري : ٢ / ٤٤٦ . ابن هشام : ٤ / ٣٣٩ .

Books.Rafed.net

وعشيرته [١] وقال عمر (رض) (العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ، ووليُّ أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مدلٍ بباطلٍ أو متجانف لإثم، أو متورط في هلكة ؟) [٢]

فإن كانت هذه شروط الأهلية كان الأولى بالقيادة بعد محمد آل بيته عليه وعليهم الصلاة والسلام ، إذ لم يكن في العرب أوسط منهم داراً ونسباً ، وكانوا هم أولياء النبي وعشيرته ، وفيهم النبوة والقيادة ، وبيتهم مهبط الوحي ومحف الملائكة .

ثم إن مقالة عمر (رض) بذاتها تثبت أن من نازع من هم بهذه المواصفات منصب القيادة فهو (مدل بباطل ومتجانفٍ لإثم ومتورط في هلكة) أفلا ندرك ما في هذه العبارة من معان ؟

إن مرشح الأنصار لم يكن بالشخصية التي يجمع عليها المسلمون آنذاك ، كما لم تكن شروط الأهلية المذكورة متوفرة في

---

(١) الطبري ، نفس الموضع .

(٢) نفس المصدر : ٢ / ٤٥٧ .

Books.Rafed.net

مرشح المهاجرين ، رغم إدعائهم هذه الصفات لأنفسهم ، ومع ذلك حسم الأمر في غياب الحزب الذي لو أعطى رئيسه الفرصة لترشيح نفسه ما نازعه أحد ، وهو علي بن أبي طالب عليه سلام الله ، كما صرح بهذا الصحابي الجليل المنذر بن الأرقم . (١)

وحتى لو أخذنا برأي ابن خلدون في قيام الدول وما اشترط من العصبية ، وهي نظريته التي يرى بها القرشية ضرورة لازمة لتأسيس الدولة من وجهة نظر السياسة والعمران ، لأنها عصبية ، فإن العصبية كانت أكثر في آل البيت إذ فيهم اجتمعت عصبية القبيلة وهي القرشية، وعصبية الفكر والعقيدة لكونهم بيت النبوة وصاحب الرسالة ، وعلى هذا فكون الإمام من آل البيت ـ وفق نظرية ابن خلدون ـ أمر تقتضيه قوانين السياسة والعمران التي ذكرها ، بل ان الإمام في هذه الحالة يكون أكفأ وأقدر ، مما يجعل الدولة أرسخ وأقوى ، لكن الرجل قدم نظرية ثم حاد عن الحق وهو يطبقها .

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٠٣ .

Books.Rafed.net

هكذا حسمت القيادة في غياب الأصلح ، مما أسفر عن شـرخ كيان الأمة شرخاً عانت منه الويلات على مـدى القـرون الأربعـة عشر الماضية، ولا زالت ، لأن عامة المهاجرين وجـل الأنصـار مـا كانوا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول ا لله صلى ا لله عليه وآله . (١)

خامسـاً : إن أسـلوب التعـامل مـع المعـارضين والمخـالفين في الرأي خلال هذه الأزمـة الدسـتورية ، لم يكـن متسـقاً ومبـاديء الإسـلام وروحـه العامـة الـتي نسـيناها ووضعنـا مكانهـا أمامنـا تصرفات البعض كنموذج يحتذى ، فغطت ظلالها حياتنا حكامـاً ومحكومين في العصر الحديث .

نعم كان كبـار الجيـل الأول وهـم في السـلطة لا يغضبـون إن أمسك بتلابيب أحدهم رجل من العامة وطالبهم بحق من حقوقه، لكن هذه كانت نماذج فردية تتعلق بأمور غير السلطة والشرعية ،

---

(١) الموفقيات للزبير بن بكار : ص ٥٨٠ نقلاً عن معـالم المدرسـتين : ١ / ١١٩ ، وأنظر تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٠٣ .

Books.Rafed.net

فأما حين كانت المعارضة للسلطة من حيث هي كذلك ، وجدنا أسلوبهم مختلفاً ، فأصل في مجتمعاتنا التجبر واضطهاد المخالفين وانتهاك الحرمات في ذلك ولو كانت حرمة بنت رسول ا لله !

فسعد بن عبادة (قتله ا لله) لأنه عارض رأي بعضهم ، وهو منافق يستحق القتل [1] لأنه رفض البيعة ، و لم يستريحوا حتى قتلوه لأنه يشكل خطراً سياسياً ، غير أن مؤرخينا انقسموا فمنهم من استحى أن يذكر واقعة قتله ، لأنها تشكل مخالفة شرعية لأحكام الإسلام الذي لا يبيح قتل من اختلف في الرأي أو عارض السلطة ، ومنهم من استخف بعقولنا فنسب قتله الى الجن [2] لكنه فشل في تقديم سبب عداء الجن له ، فهل كان الجن في السلطة ورفض سعد مبايعتهم ؟

---

(١) هذا ما قاله عنه عمر ، انظر الطبري : ٢ / ٤٥٩ .

(٢) الرياض النضرة : ٢ / ٢١٨ ، الاستيعاب لابن عبد البر : ٢ / ٥٩٩ ، طبع نهضة مصر ، تحقيق البجاوي بدون تاريخ . البلاذري : ١ / ٥٨٩ ، العقد الفريد : ٤ / ٢٦٠ .

Books.Rafed.net

ليس هذا فحسب بل إن محاولة إحراق المعارضين بالنار وفيهم بنت رسول ا لله عليه وآله الصلاة والسلام ، وابن عمه وغيرهما من صلحاء الأمة ، لمعارضتهم شرعية بيعة أبي بكر (رض) كما سبق تفصيله ، كان أبشع نموذج لقمع المخالفين واضطهاد المعارضين ، حتى أن أبابكر (رض) ظل يندم عليه ويقول (ليتني لم أفتش بيت فاطمة بنت رسول ا لله وأدخله الرجال ولو كان أغلق على حرب) . (١)

هذه التصرفات التي ارتكبها الأوائل لم تمر هكذا بلا أثر ، بل حفرت بأظفارها في عقل الأمة الباطن ونقشت فيه روحها ، فإذا بمن علينا من حكام يقلدونها ، فإن ذهبنا الى التنظيمات الإسلامية التي تريد إعادة الخلافة وجدناها لا تتحمل رأياً مخالفا أبداً ، وتسارع في إصدار الفتاوى وإهدار الدماء ، فأصبح الجو العام السائد في مجتمعاتنا جواً إرهابياً ، يخشى أصحاب الرأي فيه على

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١١٥ ، وانظر البلاذري : ١ / ٥٨٧ والطبري : ٦١٩/٢ .

Books.Rafed.net

أنفسهم ، فيعتزلون النـاس ، ويقبعـون في بيوتهـم ، لأن المعارضـة الواعية لا يتحملها أي طرف من الأطراف الموجودة في السلطة أو خارجها ، ولأن قمع المعارضين وقتلهم وإحراقهـم ممارسـات غـير شرعية ، أضفينا عليها الشرعية بتقديسنا لمن ارتكبوها عبر قرون ، ولسنا الآن على استعداد لأن ننـاقض شـرعيتها وموقـف الإسـلام الحقيقي منها ، لأننا لو فعلنا ذلك اضطررنا الى تخطئـة الأشـخاص وهم أقدس عندنا من الإسلام نفسه.

سادساً : أنه لو قيل أن سبب التعجيل بحسم مشـكلة القيـادة ببيعة أبي بكر (رض) وجوب ألا تيقى الأمة والدولـة بـلا قيـادة يومـاً واحـداً، وهـو مـا ذكـره عمـر ، وأن هـذه قـاعدة عامـة في الإسلام من أجل المصلحة القوميـة العليـا ، قلنـا فلمـاذا أبقـى هـو نفسه على الدولة ثلاثة أيام بلا قيادة، لإعطاء فسـحة للتشـاور في أمر القيادة كما سيأتى بيانه ؟

فإن قيل أن مجلس الشورى آنذاك كان في محـل القيـادة ، قلنـا فكيـف بقيـت الدولـة بـلا قيـادة حـوالي أسـبوع بعـد وفـاة

Books.Rafed.net

عثمان (رض) مع أن الظروف وقتها كانت تستدعي فرض الأحكام العرفية بلغة عصرنا ، إذ كانت الأمصار قد انتفضت على الخليفة في ثورة عارمة ، وحاصره الثائرون أربعين يوماً كما في بعض الروايات ، وأرادوا خلعه ، ثم أخيراً قتلوه [1] فقاعدة المصلحة ـ إذا تمسك بها البعض في بيعة أبي بكر ـ لم يجد لها وجوداً فيما تلاها من ظروف اقتضتها ، وبالتالي فلم تكن قاعدة ، أو كانت قاعدة ، لكنها طبقت وفق المزاج والهوى .

سابعاً : أن الإهتمام بالقيادة وتعيينها أساس في الإسلام إذا نظرنا الى روحه ، إذ كل قوم لابد لهم من قيادة حتى الكفرة (فقاتلوا أئمة الكفر) التوبة ـ ١٢ ، وقد اهتم الرسول عليه وآله أفضل الصلاة والسلام بتعيين القيادات في حياته ، فكان يؤمر أصحابه في البعوث والأسفار والحج وغير ذلك ، ووضع الإسلام تفاصيل الأمور العادية ، كالغسل وتكفين الموتى واللباس والطعام والشراب ، فكيف يهتم بهذا ولا يهتم بتعيين القيادة بعد وفاة

---

(١) انظر الطبري : ٣ / ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ .

Books.Rafed.net

مؤسس الدولة ؟ وكيف يشغل هذا الأمر أبـابكر وعمـر (رض) فيعين كـل منهمـا القيـادة بعـده ، في حـين لا يهتـم ا لله ورسـوله بشيء من هذا ؟

ونحن إن أغمضنا أعيننا عن وجهة نظـر الشـيعة في أن الوصيـة بقيادة الأمة بعد النبي كانت لعلي عليه السلام ، بل افترضنا ـ مـن أجل إراحة إخواننا الذين قد يشمون في كلامنا رائحة تشيع ـــ أن جميع أهل البيت لم يكن لهم وجود في التاريخ أصلاً ، فـإن أهميـة منصب القيادة في الإسلام ، وروح هـذا الديـن ، وطبيعـة نظريتـه السياسية ، تقتضي أن يكـون الرسـول قـد تـرك في مسـألة تعيـين القيادة شيئاً ، ونذهب بخيالنا أبعد مـن هـذا ، فنفـترض مـن أجـل سواد عيون إخواننا ـ أن مؤسس الدولة أوصى بالقيادة بعـده لهـذا أو ذاك من الصحابة ، أو بتشـكيل مجلـس ، أو بشـكل آخـر مـن أشكال تعيين القيادة ، ولو جملة تكون لهـا منزلـة الدسـتور الـذي تسير عليه الدولة ، كأي دولة من الدول في التاريخ عند النصارى واليهـود والبوذيـين والمجـوس والهنـدوس وكـل أمـم الأرض ، لأن دستور الدولة أيا كان مسـألة طبيعيـة بـل بدهيـة في تـاريخ الأمـم

Books.Rafed.net

والشعوب،وأول مافي الدستور تحديدقيادة الدولة، إذ من المستحيل عقلاً وشرعاً أن يكون الإسلام وحده من بين أديان البشر قبل الميلاد وبعده ، وثنية وثانوية وتوحيدية وتثليثية قد ترك الفصل في القيادة لمزاج الناس، وعصبيات القبائل ، وضغائن النفس البشرية .

أقول اذا افترضنا أن مؤسس الدولة ترك لها دستوراً يحدد القيادة ، كان اجتماع من اجتمعوا في السقيفة ، والإجراء الذي اتخذوه أول مخالفة دستورية، وأول درجة من الإنحراف الذي ما فتيء ينفرج ويزداد ، حتى أصبح ثورة مضادة كاملة المعالم ، شاخصة أمام الأبصار.

ثامناً : أنه لو صحت روايات المؤرخين التي ذكرت أن من اجتمعوا في السقيفة استدلوا في شأن أبى بكر (رض) باستخلافه في الصلاة على استخلافه في القيادة ، وقالوا : ارتضاه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ [1] وقعنا في عدة إشكالات :

---

[1] ابن خلدون : ص ٢١٩

Books.Rafed.net

الأول : أن القيادة وفق هذا الرأي من أمور الدنيا لا من أمور الدين، وهذه مقولة نشأت فيما بعد ، وأدخلها المؤرخون في فكرنا السياسي ، وما دامت القيادة من أمور الدنيا ، فلماذا نسعى لها اليوم ونطالب بإبعاد الطواغيت عنها ؟ لذلك أظن ـ وليس كل الظن إثماً ـ أن هذه الرواية محشورة حشراً في تاريخنا ، لأنها تعلوها مسحة من فكر السلطة السياسي ، الذي نشأ بعد قرون من انتهاء الخلافة .

الثاني : أن هذه الرواية لو صحت كانت أول درجة من درجات فصل الدين عن الدولة والسياسة إذ معناها أن القيادة أمر دنيوي والصلاة أمر ديني ، وهذا تفريق لا يعرفه الإسلام .

الثالث : أن إمامة الصلاة أهم من إمامة الدولة وقيادتها ، وهي النتيجة التي انتهى إليها ابن خلدون بناء على هذه الرواية [1] واعتقادي أن العكس هو الصحيح ، فمن يصلح لإمامة الصلاة بمعايير الإسلام لا يصلح بالضرورة لقيادة الأمة ، أما من ينفع

---

[1] نفس المصدر ، نفس الموضع .

Books.Rafed.net

لقيادة الأمة ـ أيضاً وفق معايير الإسلام ـ ينفع بالضرورة لإمامة الصلاة . ولو سلمنا بأن كل من يصلح للصلاة إماماً يستطيع قيادة الدولة أنجر ذلك بنا الى فساد عظيم يعرفه كل أحد . ومن الأسف أن هذا الرأي اخترق أجيالاً ووصل إلينا في الدم ، فصار كل من استطاع أن يؤم الناس في ركعتين مفتياً وأميراً وقائداً . وللشاعر الثائر محمد إقبال شعر في هذا يقول فيه :

ما الذي أدرى إمام الركعتين المسكين بالشعوب وإمامتها؟ [١]

واعتقاد البعض بأن من يصلح لإمامة الصلاة يصلح لقيادة الدولة ، يوقعنا في تناقض عظيم ، فالصلاة ـ عندنا أهل السنة ـ جائزة خلف كل مسلم برّ وفاجر [٢] بينما إمامة الفاسق والفاسد لا تجوز لقوله تعالى (**إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين**) البقرة ـ ١٢٤ [٣]

---

(١) كليات اقبال : ص ٤٨٧ ، طبع غلام علي ، باكستان ، مارس ١٩٨٢

(٢) شرح الفقه الأكبر ، ملا علي القاري ، ص ٩١ طبع الهند ، بدون تاريخ .

(٣) أحكام القرآن ، أبوبكر الجصاص : ١ / ٨٠ ، مصر ١٣٤٧ هـ .

Books.Rafed.net

الرابع : أنه لـو صـح استخلاف أحـد في الصـلاة دليـلاً علـى استخلافه في قيادة الدولة ، لكان صهيب أولى الناس بالقيادة بعـد عمر إذ استخلفه في الصلاة بعـد وفاتـه ثلاثـة أيـام ، بينمـا أسـند مهمة تعيين القيادة الى مجلس الشورىالذي ضم ستة آخرين غيره.

كذلك صلى بالناس حين حصر عثمان أبو أيـوب وسـهل بـن حنيف وخالد بن زيد [1] ولم يفتح أحد فمه ويردد نفس القـاعدة ويرى أياً منهم أحق بالقيادة بعد وفاة الخليفة . فهـل كـانت هـذه قاعدة دستورية ؟

وإن كانت كذلك فهل هي من عند الله ، أم من عند رسوله، أم من اجتهادات قائلها ، أم من إدخال المؤرخين ؟

ولو افترضنا أنها قاعدة فلماذا عمل بها في حق أبي بكـر ، ولم يعمل بها في حق الآخرين ؟

هكذا تم تعيين القيادة في الدولـة الإسـلامية الوليـدة بعـد وفـاة مؤسسها ببيعة أبـي بكـر (رض) فنظـر فيهـا مؤرخونـا وعلمـاء

---

[1] الطبري : ٣ / ٤٤٧ .

Books.Rafed.net

سياستنا ـ الشرعية ـ وأفتونا بأن تعيين القيادة في الأمـــة ، واختيـار القائد في الدولة الإسلام يتم ببيعة خمسة أو ثلاثة أو حتى واحـد ، كما سنذكر من بعد ، ووضعوا ما وضعوا في ضـوء هـذا الحـدث التاريخي من آراء ونظريات سياسية ألزموا المسلمين بها ، فشاعت فيهم ، واستقرت في عقولهم الباطنة ، وانعكســت علـى سـلوكهم السياسي ، وشكلت الخلفيــة الدينيـة السياسـية عنـد مـن تحمسـوا للإسلام وأرادوا استعادة مجده ، وقد عرضناها هنـا عرضـاً شـديد الإختصار ، وأشرنا في اقتضاب الى نتائجها ومتضمناتها ، ناظرين إليها بعين المنطــق الواعـي ، والعقـل السـليم ، مـن أجـل اصـلاح الحاضر وصناعة المستقبل ، بعيداً عـن فـورات العواطـف وتضليـل الحب الأعمى .

٢ ـ بيعة عمر بن الخطاب (رض)

لم يكن انتقال القيادة بعد أبي بكر الى عمر (رض) أمراً غـير متوقع إذا نظرنا إليه في إطار سياسة السقيفة وما تلاها على مــدى عامين، إذ كان عمر أشدالناس فعالية في إتمام بيعة أبي بكر (رض)

Books.Rafed.net

كما لعب دوراً سياسياً بارزاً في الداخل خلال فترة قيادة الخليفة الأول . وكان الإمام علي (ع) أول من توقع انتقال القيادة الى عمر (رض) وذلك حين بعث أبوبكر عمر إليه ليأخذ منه البيعة بالجبر والإكراه وقال له (ائتني به بأعنف العنف ، فلما أتاه جرى بينهما كلام فقال (علي لعمر) (أحلب حلباً لك شطره ، والله ما حرصك على إمارته اليوم إلا ليؤثرك غداً) [١] وفي رواية أخرى (أحلب يا عمر حلباً لك شطره [٢] أشدد له اليوم أمره ليرد عليك غداً ، لا والله لا أقبل قولك ولا أتابعه) [٣]

لذلك رأينا أبابكر (رض) في مرضه يرفض ترشيحات من استشارهم ، ويدفع الإعتراضات التي سجلها بعضهم ، ويصر على دفع القيادة الى عمر [٤] حتى دعا عثمان (رض) وحده فقال له

---

(١) البلاذري : ١ / ٥٨٧ .

(٢) هذا مثل قديم عند العرب يضارع ما في العامية المصرية : من خدم السبت يلقى الحد خدامه ، أو : شيلني وأشيلك .

(٣) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد الشافعي : ٦ / ١١ ، مصر ١٩٥٩ هـ .

(٤) الطبري : ٢ / ٦١٨ .

Books.Rafed.net

(أكتب بسم ا لله الرحمن الرحيم، هذا ماعهد به أبوبكر بن أبي قحافة الى المسلمين ، أما بعد ، ثم أغمي عليه فذهب عنه ، فكتب عثمان أمابعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، و لم آلكم خيراً منه ، ثم أفاق أبوبكر فقال : إقرأ علي ، فقرأ عليه، فكبر أبوبكر وقال : أراك خفت أن يختلف الناس إن افتلتت نفسي في غشيتي ، قال نعم ، قال جزاك ا لله خيراً عن الإسلام وأهله ، وأقرها أبوبكر رضي ا لله تعالى عنه من هذا الموضع) [1] وهذه الرواية أيضاً تؤيد ما ذهبنا إليه من أن دفع القيادة الى عمر كان أمراً متوقعاً، توقعه علي (ع) وعثمان (رض) وربما غيرهما كثير ممن لم يذكرهم المؤرخون ، حتى أن عثمان كتبه دون أن يمليه عليه الخليفة ، ولو لم يكن الأمر يقيناً عنده ما كتبه في هذا الموضع دون أمر وإملاء .

وجلس عمر مع الناس وفي يده الجريدة المكتوبة وهو يقول (أيها الناس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، إنه يقول إني لم آلكم نصحاً) . [2]

---

[1] نفس المصدر : ٢ / ٦١٨ ـ ٦١٩ .

[2] نفس المصدر : ٢ / ٦١٨

Books.Rafed.net

وانتقلت القيـادة الى عمـر بـن الخطـاب بـالعهد ، ولم يشـترط لصحتها رضا الناس ، وتم تعيين القيـادة الجديـدة هـذه المـرة وفـق قاعدة جديدة غير الأولى ، ليس لها أيضاً سند من كتاب ولا سنة، وفي غياب دستور الدولة . ثم تأسس عليهـا فيمـا بعـد مبـدأ نقـل للقيـادة والسـلطة مـن شـخص الآخـر بـالعهد دون رضـا النـاس واختيـارهم ، كمـا فعـل بنـو أميـة وبنـو العبـاس ، وكمـا تفعـل المشيخات والمملكات العربية المعاصرة .

ولئن كان النظام الملكي بملامحه الواضحة قد ابتدعه معاويـة في الإسلام ، إلا أن عهد أبي بكر لعمر كان أول درجة من الإنحراف الى هذا الطريق قبل معاوية بأقل من أربعين عاماً ، ثم أخـذ يتسـع درجة درجة حتى استوى واكتمل بتولية يزيد أمر المسـلمين ، ثـم سارت الدول من بعد في هـذا الطريـق باسـم الإسـلام ، ذلـك أن التغيرات السياسية ـ كما ذكرت ـ تبدأ بدرجة ثم تتسع وتكبر .

وبناء على هـذه السـابقة التاريخيـة الـتي صـدرت عـن بشـر لم يطالبنا الإسلام باتباعه إن أخطأ ، اعتبر من كتبوا لنـا في السياسـة

Books.Rafed.net

والدستور الإسلامي تعيين القيادة في الأمة بالعهد أصلاً اسـلامياً ، ولا اعتبار في هذا لرأي الناس ، فقال الماوردي مثـلاً (والصحيـح أن بيعته منعقدة ، وأن الرضا بها غير معتبر ، لأن بيعة عمر رضـي الله عنه لم تتوقف على رضا الصحابة، ولأن الإمام أحق بها) [١]

ومع أن القيـادة آلـت الى عمـر كمـا رأينـا دون مشـورة مـن المسلمين، بعهد من سابقه ، إلا أننا نجد في كتبنا ما هو مروي عن عمر(رض) نفسه من إدانة في قوله (من بايع رجلاً عن غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا) [٢]

ومن حق أحدنا أن يقـول : إن تعـدد أشـكال تسـلم السـلطة وتسليمها يعطى الناس حرية الإختيار، فينتخب كل شعب منها ما يناسب مجتمعه وبيئته، وعليه فكل هذه الأشكال والطرق جائزة .

لكننا نقول في جوابه : إن هذا الكلام صحيح لو كان الإسلام قد ذكر في ذلك شيئاً .

---

(١) الأحكام السلطانية : ص ٨ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الحدود ، باب رجم الحبلي من الزنا .

Books.Rafed.net

فإن قيل إن القاعدة الأصولية أن سكوت الشارع عن شيء يعني إباحته ، قلنا نعم ولكن هذا ينطبق على المتغيرات ، والقيادة شيء ثابت . فإن وضع الإسلام ـ مثلاً ـ قاعدة الشورى وسكت عن طريقة تنفيذها فهمنا أن طريقة التنفيذ متروكة لكل قوم وعصر بما يناسبه . لكن أن يسكت الإسلام عن مسألة أساسية بل هي أم المسائل ، فهذا ما فيه ألف نظر . ولئن سكت الإسلام فلا يسكت أبداً عن الفوضى الدستورية والسياسية التي انتشرت في الدولة دون مبرر ، عن طريق التغيير السريع لأسلوب تعيين الأمة ـ وهي خير أمة ـ لقيادتها .

إن تغيير أسلوب التنفيذ أو الإصلاحات الدستورية عملية طبيعية في حياة المجتمعات ، لكنها مرتبطة بالمستجدات من الظروف التي تقتضي التعديل ، فلو افترضنا أن أسلوب السقيفة صحيح ، وأنه هو المقرر في الإسلام ، فما هي الظروف التي طرأت خلال عامين من حكم أبي بكر وجعلت تغيير هذا الأسلوب أمراً محتوماً ، فإذا القيادة تتحدد بالعهد ، وإن كان

Books.Rafed.net

العهد هو الصواب فما الذي حدث من أمور جديدة في الدولة استدعت تغييره الى مجلس شورى ؟

وهل القيادة في الإسلام أتفه من الجماع والبصق والتبول والتبرز ، فيسكت عنها السلام مع عظيم شأنها ؟ مع أن الأمة كلها إن أخطأت في التبول والتبرز ما وقعت كارثة ، وما اختل النظام ، بينما الأمة لو أخطأت في افراز قيادة ، فهي كارثة بل وا لله أم الكوارث .

فإن قال أحد إن القاعدة العامة هي الشورى ، سألناه فأين الشورى في استخلاف عمر (رض)

وإن قال ـ كما يحلو للبعض أن يشبهوا أحداث السقيفة بذلك ـ إنها الإنتخاب الحر ، سألناه : فأين بيعة أبي بكر من هذه ؟

وأعجب ما قيل في هذا قول ابن خلدون وهو يعقب على هذه الأحداث وما تلاها في تاريخنا الإسلامي من حروب واقتتالات وبغي وتزوير ، اذ اعتبر أن كل الأطراف على صواب ، فالحسين مصيب ويزيد أيضاً مصيب ، وعلي على حق ومعاوية كذلك على حق ، والقاتل في الجمل وصفين على هدى والمقتول أيضاً

Books.Rafed.net

على هدى ، وأسلوب تولية أبي بكر صحيح ، وطريقة إسناد القيادة الى عمر صواب، وكل الناس كانوا على حق ، ثم قال ما نصه (واعتقد أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأمة ليقتدي كل واحد بمن يختاره ويجعله إمامه وهاديه ودليله) [1] وذلك عنده لأن كل واحد منهم اجتهد ، فمنهم من فاز بأجرين ومنهم من نال أجراً واحداً ، ولنا أن نقتدي بمن نحب ، فإن قامت في بقعة من ديارنا دولة إسلامية شرعية وخرج بعضنا عليها ، وأراق دم المسلمين ، وأسقط نظام الدولة الإسلامي ، فالحكومة على حق والخارج الباغي على حق ، لأن قدوته في ذلك معاوية . وإذا ركبنا حاكم فاسق خليع يشرب المسكر ويلعب بالقرود عن طريق شراء الأصوات وتزييف البيعات كما فعل يزيد ، فهو على حق ، ومن قام في وجهه وثار عليه ودفع دمه استشهاداً في سبيل إزالته أيضاً على حق، لأن قدوة الأول يزيد وقدوة الثاني الحسين. وإن أعطى أحد حكامنا القيادة بعده لأحد أصدقائه دون أخذ

---

(١) المقدمة : ص ٢١٣ .

Books.Rafed.net

رأي الشعب فله في السلف أسوة حسنة ، وإن سلك في توليته طرقاً يشك فيها ، أو رفع أسرته على رقاب الناس ، أو بدد خزانة الدولة ، أو فعل أكبر من ذلك أو أصغر ، فله في الجيل الأول قدوة ، لأن كل ذلك مباح مشروع اكتسب شرعيته من ممارسة السلف له .

أفهذا با لله فكر سياسي ننسبه الى الإسلام ونقدمه للناس في القرن العشرين ، ونطرحه علي الشرق والغرب مباهين به الأمم ، مفاخرين بهذه الفوضى السياسية والدستورية نظمهم المستقرة المحددة رغم علمانيتها ، زاعمين بأن المسألة إجتهاد ؟

أما آن الأوان لأن نميز بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ ، لنصل الى شيء محدد نعرضه على البشر في فخر واعتزاز ؟

وإن كان اختلافهم رحمة كما يقال ، فمالنا محرومين من هذه الرحمة وقد مر على اختلافهم أربعة عشر قرناً ؟

وما لنا لم نر من اختلافهم إلا إختلافاً مماثلاً ، وفوضى سياسية ودستورية كتلك التي بدعوها ثم استسغاناهاوبلعناها، لأن مشايخنا قالوا لنا إنها كانت اجتهاداً و لم يسموها لنا باسمها الحقيقي ؟

Books.Rafed.net

٣ ـ بيعة عثمان بن عفان (رض)

يبدو أن كثيراً من الناس وعلى رأسهم عمر (رض) نفسه أدركوا أن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ولم تكن وفق سياق طبيعي، وأن بيعة عمر كانت بغير مشورة من المسلمين ، وكذلك تكرر كثيراً ـ كما مر بنا وكما ذكرت عشرات الكتب في التاريخ والحديث ـ أن هذا أو ذاك من الصحابة صرح بذلك حتى اعترف عمر (رض) بهذه الحقائق قائلاً (إن رجالاً يقولون إن بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، وإن بيعة عمر كانت عن غير مشورة ، والأمر بعدى شورى) [1] فهذه الرواية ـ إن صحت ـ دلت على اعتراف صريح بأن تحديد القيادة في المرة الأولى والثانية لم يكن شورى ، بل كان كما رآه الناس آنذاك : فلتة مرة ، وبلا مشورة أخرى ، ولهذا فقد قرر عمر تعيين القيادة من بعده ـ وفي المرة الثالثة ـ عن طريق الشورى .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري : ٥ / ١٥ .

Books.Rafed.net

ولما طعن عمر ، ورأى أنه ذاهب الى ربه ، وضع صيغة سياسية جديدة لتعيين قيادة خير أمة وخير دولة ، فدعا علياً ، وعثمان ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبدالرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام (رض) وقال لهم :

(فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبدا لله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه معكم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم . . . وقال لأبي طلحة الأنصاري : يا أبا طلحة إن ا لله عزوجل طالما أعز الإسلام بكم ، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتموني في حفرتي فأجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً منهم ، وقال لصهيب : صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبدا لله بن

Books.Rafed.net

عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد فاشدخ رأسه أو أضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً وأبى إثنان فاضرب رؤوسهما ، فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبدا لله بن عمر ، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبدا لله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس ...

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المسور بن مخرمة ، ويقال في بيت المال ، ويقال في حجرة عائشة بإذنها ، وهم خمسة معهم ابن عمر وطلحة غائب... فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام... فقال عبدالرحمن : أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد ، فقال فأنا أخلع منها فقال عثمان أنا أول من رضي ... فقال القوم : قد رضينا . (١)

---

(١) الطبري : ٣ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥ . العقد الفريد : ٤ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦ .

Books.Rafed.net

وبعد مناقشات ومداولات كثيرة قال عبدالرحمن بن عوف (رض) (إني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً . ودعا علياً فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده قال : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي . ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي قال نعم ، فبايعه) [1]

وفي رواية أخرى أنه سأل علياً (ع) (هل أنت يا علي مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ فقال : اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، فالتفت الى عثمان فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللهم نعم) [2] ثم نهضوا الى المسجد فصعد عبدالرحمن المنبر ، ونادى علياً ثم أخذ بيده وقال (هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال :

---

(١) الطبري : ٣ / ٢٩٦ ـ ٢٩٧

(٢) الطبري : ٣ / ٣٠١ .

Books.Rafed.net

اللهم لا ، ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي ، فأرسل يده ثم نادى : قم اليَّ يا عثمان ، فأخذ بيده وهو في موقف علي الذي كان فيه فقال : هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ قال : اللهم نعم ، فرفع رأسه الى سقف المسجد ويده في يد عثمان ثم قال : أللهم اسمع وأشهد ، أللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان ، وازدحم الناس يبايعون عثمان) [1] .

وإذا حاولنا أن نفهم هذه القصة بلغة عصرنا ، لا بأسلوب المؤرخين الذي قد يصعب على كثير منا ، قلنا إن برنامج الخليفة الثاني لتعيين القيادة اشتمل على البنود التالية :

١ ـ تشكيل مجلس شورى من سبعة أعضاء أحدهم لا يحق له ترشيح نفسه . هؤلاء الأعضاء هم :

علي بن أبي طالب ، وكان مرشحا للقيادة .

---

(١) الطبري : ٣ / ٣٠١ ـ ٣٠٢ . وانظر التفاصيل في العقد الفريد : ٤ / ٢٧٣ وما بعدها .

Books.Rafed.net

عثمان بن عفان ، وكان مرشحا للقيادة .

عبدالرحمن بن عوف ، وهو زوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبـي معيط وأمها . أروى بنت كريز ، وأروى هـي أم عثمـان ، فهمـو بهذا زوج أخت عثمان لأمه .

سعد بن أبى وقاص ، وهو ابن عم عبدالرحمن بن عوف .

طلحة بن عبيدا لله ، وكان غائباً لم يحضر .

الزبير بن العوام ، وكان ابن خـال فاطمـة (ع) زوجـة أحـد المرشحين .

عبـد ا لله بـن عمـر ، رأيـه استشـاري ، وهـو ابـن الخليفـة ، ومواقفه من أحد المرشحين (الإمام علي) معروفة مسجلة .

٢ ـ قتـل مـن حـاز علـى نسـبة أقـل أو حتـى متسـاوية مـن الأصوات ، ورفَضَ مبايعة من وقع عليه الإختيار .

٣ ـ عند تساوي الأصوات توضع سـلطة التحكيـم في يـد ابـن الخليفة، فإن رفض قراره ، رجح المرشح الذي يميل معه عبدالرحمن بن عوف .

Books.Rafed.net

٤ ـ مدة التشاور ثلاثة أيام

نعم كان لكل واحد من أعضاء المجلس حق الترشح للقيادة ، إلا أن جميع الأعضاء وكذلك عامة الناس ، كانوا يفهمون أن السباق ليس إلا بين علي وعثمان ، ومن ثم ذكرت كلاً منهما على أنه مرشح للقيادة . وفي كلام الامام علي عليه السلام تأييد لهذا كما سترون فيما بعد .

ثم أسفر المجلس عن إيكال سلطة حسم المشكلة الى عبدالرحمن بن عوف بناء على اقتراحه هو نفسه ، فصار له وضع القيادة المؤقتة التي أنيطت بها مسئولية اختيار القيادة الجديدة ، أي أن السلطة التي أجرت الانتخابات ـ بمفهوم عصرنا ـ كانت تميل مع أحَد المرشحين ، وتربطها به صلة نسب قوية . وانتهى الأمر ببيعة عثمان (رض) .

واذا أزلنا قليلاً من الصدأ الذهني والفكري اللاصق على عقولنا وأفهامنا ، وحاولنا فهم ما جرى في حجاب عن زوابع العاطفة قلنا :

Books.Rafed.net

أولاً : إن تشكيل المجلس وإنتقاء أعضائه لم يتم على أساس مفهوم واضح ، فما هي شروط الأهلية هنا ؟ ولماذا لم ينتق الخليفة غير من انتقى ؟ ولماذا لم يمثل فيه الأنصار ، وهم قوة سياسية كبيرة بالمجتمع آنذاك ؟

ثانياً : إن إنتقاء ستة أعضاء ثلاثة منهم أقرباء فيما بينهم ، وفيهم أحد المرشحين ، ثم تركيز سلطة الفصل في الأمر عند التساوي في يد ابن الخليفة المعادي لأحد المرشحين ، فإن لم يكن ففى يد قريب أحد المرشحين دون سبب شرعي لهذا الإجراء ، كله من تفضيل لعبد الرحمن بن عوف ، أو وضع القرار في يديه ، أمر لا يفهم منه إلا وضع هذه الصيغة السياسية والدستورية بحيث يصبح فوز أحد المرشحين ــ وهو هنا عثمان بن عفان ــ أمراً محتوماً، وتبقى المسألة إجراء صورياً لذر الرماد في الأعين ، والتخييل على الناس بأن الأمر تم عن طريق الشورى .

وأقل ما يوصف به مثل هذا المجلس في عرفنا ـ على الأقل من حيث التشكل ـ أنه غير محايد ، لأن مجموعة الأقارب التي تربطها وشائج القرابة ، وعلاقات المصالح ، يمتنع أن تتفق على غير

Books.Rafed.net

مرشحها ، فإذا تساوت الأطراف فالسلطة في يدها ، وهو ما يجعل الفريق الآخر لا قيمة له ، ولا فرصة أمامه .

من أجل هذا رأينا الإمام علي (ع) يسخر من مجلس الشورى في بعض كلامه ويقول (حتى إذا مضى لسبيله (أي عمر) جعلها (أي القيادة) في جماعة زعم أني أحدهم، فيا لله ويا للشورى ... فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره) [1] ويعلق على الصيغة السياسية التي وضعها عمر فيقول (قرن بي عثمان ، وقال كونوا مع الأكثر ، فإن رضي رجلان رجلاً ، ورجلان رجلاً ، فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف ، فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمن ، وعبدالرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبدالرحمن عثمان أو عثمان عبدالرحمن ، فلو كان الآخران (يعني طلحة والزبير) معي لم ينفعاني ، بل إني لأرجو إلا أحدهما) [2] أي أنه كان يتوقع بقاء الزبير فقط معه وانحياز طلحة عثمان وهو ما حدث .

---

(١) نهج البلاغة بتعليق الدكتور صبحي الصالح ، ص ٤٩ ، بيروت ١٩٦٧ .

(٢) الطبري : ٣ / ٢٩٤ .

Books.Rafed.net

وأكرم عثمان طلحة ، وخصه بالعطاء طوال مدة خلافته حتى حصر فكان أشد الناس عليه (فكان طلحة إذن يمثل نوعاً خاصاً من المعارضة رضي ما أتاح الرضا له الثراء والمكانة ، فلما طمع في أكثر من ذلك عارض حتى أهلك وهلك) [١]

ثالثاً : إن إصدار عمر (رض) أمره بقتل من حاز على أصوات أقل أو تساوى في الأصوات ولم يبايع ، لم يكن له سند من كتاب ولا سنة ، فإن حصل مرشح على نسبة أصوات أعلى ، وآخر على عدد أقل فما الداعي لقتل الثاني ؟ وبأي شريعة يقتل ؟ وهل يبيح الإسلام قتل من لم يبايعوا أو كانوا في الأقلية أو من لم يفوزوا في الإنتخابات مثلاً ؟ أليس هذا الحكم من باب إرهاب الطرف الآخر كي يبايع ؟

قد يقال إن عمر (رض) حكم بهذا خشية الفتنة ، ومن باب الحرص على الأمة ، فنقول : وفي أي شريعة يقتل المسلم بمجرد الخوف والتحسب ، دون أن يرتكب ما يستوجب القتل فعلاً ؟

---

(١) الفتنة الكبرى ، طه حسين ص ١٥٠ ، مصر ١٩٦٢ م .

Books.Rafed.net

وهل تأييد مرشح لم يحصل ـ بالإحتيال أم بغـير الإحتيـال ـ علـى عدد كاف من الأصوات يستحق العقوبة في الإسلام ؟

أم أن الذي يستحق المحاسبة ذلك القائد والخليفـة الـذي يلجـأ للحيل لإنجاح من يريد ؟

ثـم في النهايـة نسـأل : هـل لابـد أن تكـون نسـبة الفـوز في الإنتخابات ٩٩/٩٩٪ بدون معارضة ؟ وماذا نقول لو أن حاكمـاً ممن يركبوناناليوم فعل مافعل عمر في معارضيه؟ أيكون على حق؟

فإن قيل لا ، فلـه أن يقـول : لي في عمـر بـن الخطـاب أسـوة حسنة ، ومن منا ينكر منزلة عمر ؟

وإن قيل نعم يحـق لـه ، قلنـا : فـلا ينبغـي إذن أن نعـترض إذا انتقى أحد الذين يركبوننا مجلس شورى على عينه ، وسـلك كـل سبيل ليأتي في الحكم بمن يريد ، وقتل من فازوا بأقليـة الأصـوات خشية الفتنة !

رابعاً : إن العهـد الـذي أخـذه عبدالرحمـن بـن عـوف مـن المرشحين كشرط لتولي القيادة أيضاً فيه كلام . فالإمام علي (ع)

Books.Rafed.net

ـ كما هو معروف ـ كان أعلم من في الأمة، وكانت فيه بلا شك كبرياء العلماء، ولا يصح إقرانه بغيره بإجماع المسلمين قديماً وحديثاً . وإلزامه باتباع الكتاب والسنة أمر جد مقبول ولا غبار عليه ، أما إلزامه باتباع أعمال أبي بكر وعمر فقد كان استفزازاً، كما أنه ما أنزل الله به من سلطان، فأين الدليل على أن الإلتزام بأعمال أبي بكر وعمر (رض) شرط للخلافة وإدارة الدولة لا تفلح إلا به ؟

ولقد كان لعلي دون ريب مآخذ على أخطاء سياسية ارتكبها الشيخان خلال مدة حكمهما ، وكان أعلم منهما ، فهل يصلح أن يكون الإلتزام بأخطاء السلف دستوراً للعمل في الدولة ؟

وطبيعي أن رجلاً كعلي لا يقبل الإقرار بالإلتزام بهذه المخالفات التي ندم عليها من فعلوها أنفسهم .

ثم إن هذا الشرط لم يضعه عمر في الدستور الذي تركه ـ إن جاز لنا اعتبار ما تركه بمثابة دستور للدولة ـ ولم يكن هذا الشرط إلا تعديلاً تعسفياً في الدستور أجراه عبدالرحمن بن عوف بمزاجه لحاجة في نفسه .

Books.Rafed.net

ودعنا نفترض جدلاً صحة هـذا الدستور شرعاً ، فهـل سـار عليه عثمان في خلافته ؟ أم أنه انحرف عنه إنحرافاً كبـيراً كمـا هـو مشهور في التاريخ ؟ ولماذا لم يذكر أحـد هـذا الشـرط حـين رأوا المخالفـات ، ولمـاذا لم يعـزل لإخلالـه بالشـرط الـذي لـولاه مـا أعطيت له القيادة ؟

ألا تنص الشريعة على أن الخليفة إذا لم يف بشروط اسـتخلافه عزل ؟

والإستفزاز الذي ذكرنا لتونا فطن إليه الإمام علي عليـه سـلام ا لله حين خلا عبدالرحمن بن عوف به ثـلاث مـرات يسـأل : لنـا ا لله عليك إن وليت هذا الأمر أن تسير فينا بكتاب ا لله وسنة نبيـه وسيرة أبي بكر وعمر ، حتى قال له الإمام في المـرة الأخـيرة (إن كتاب ا لله وسنة نبيه لا يحتـاج معهـا الى أحـيرى (بكسـر الهمـزة وتشديد الجيم أي الطريقة والسنة) أحد ، أنت مجتهـد أن تـزوي هذا الأمر (يعني القيادة) عني [1] ودفع القيادة لعثمـان لمـا وافقـه على هذا الشرط .

---

[1] تاريخ اليعقوبي : ١ / ١٦٢ .

Books.Rafed.net

والواقع أن تشبث عبدالرحمن بن عوف بضرورة الإلتزام بأعمال أبي بكر وعمر ، ينبغي أن نفهمه في ضوء التيارات السياسية والتغييرات الإجتماعية والإقتصادية التي طرأت على المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول عليه السلام ، ونتيجة للسياسة الإقتصادية بوجه خاص التي سارت عليها الدولة في عهد الشيخين لا سيما عمر ، ذلك أن هذه السياسة أدت الى تغييرات في الدولة، ورفعت فئة على فئة على النحو الذي أشار اليه أستاذنا الشهيد سيد قطب في كتابه العدالة الإجتماعية .

وكان الإمام علي معروفاً بمخالفته هذه السياسة ، مشهوراً بفقره وزهده وحبه للمساواة وللفقراء والمستضعفين ، فبرز كقائد سياسي وديني لهذا التيار فالتف حوله أتباعه ، ولذلك كثيراً ما روى عن عمر قوله (قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار الى علي) [1] وقال (لله درهم إن ولوها الأصيلع (يقصد عليا)

---

[1] الطبري : ٣ / ٢٩٣ . العقد الفريد : ٤ / ٢٧٤

Books.Rafed.net

كيف يحملهم على الحق وإن كان السيف على عنقه) . قال محمد بن كعب : فقلت أتعلم ذلك منه ولا توليه ؟ فقال إن تركتهم فقد تركهم من هو خير مني) [١]

وقال مرة أخرى عنه (أحربه أن يحملهم على الحق) [٢] وقال لابنه (ان ولوها الأجلح يسلك بهم الطريق المستقيم - يعني علياً - فقال ابن عمر : فما منعك أن تقدم علياً ؟ قال أكره أن أحملها حياً وميتاً) [٣]

وقد روت الكثرة من كتب الحديث والتاريخ هذا النص بروايات وألفاظ مختلفة ، مما يدل على أن عمر وغيره من الصحابة آنذاك كانوا يعرفون أن علياً إذاجاء الى السلطة، أخذ الدولة على طريق الحق، واشتد في إحقاقه دون محاباة ، مما يضر بمصالح فئة

---

(١) الرياض النضرة : ص / ٩٥ .

(٢) الطبري : ٣ / ٢٩٤ .

(٣) الرياض النضرة : ٢ / ٩٥ .

Books.Rafed.net

معينة ليسوا على استعداد لتحمل تبعة سياسة المساواة والإنصاف التي سيتبعها علي (ع) .

والذي نذكره هنا أن هذا التغيير الإقتصادي والإجتماعي الذي نشأ في خلافة عمر وندم عليه قبل موته [1] زاد واستفحل في عهد عثمان (رض) حتى عصفت نتائجه بالدولة عصفا .

و لم أقف على أحد من القدماء أو المحدثين تناول بالتاريخ عصر الخلافة إلا وأشار من قريب أو بعيد ، تلميحاً مرة وتصريحاً عشرات المرات ، الى أن سياسة عثمان الإقتصادية خاصة والإدارية عامة كانت سبب تنافس الصحابة ـ أو أكثرهم ـ ثم اقتتالهم فيما بعد . فلقد أحدثت سياسته المالية والاقتصادية الخاطئة انقلابا هائلا في وضع المجتمع العربي آنذاك ، فبرزت قطع من نسيجه وانخفضت قطع أخرى ، ففقد وحدة الإنتماء الإقتصادي وطابع المساواة الذي تركه عليه رسول الله ، وظهرت الطبقات بمعالمها واضحة (وبلغ نظام الطبقات غايته بحكم هذا الانقلاب ،

---

(1) الفتنة الكبرى ص ٨ .

Books.Rafed.net

فوجدت طبقة الارستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع ، ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ، ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب الذين كانوا يقيمون في الأمصار ، ويغيرون على العدو ويحمون الثغور ، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء ، وهذه الطبقة المتوسطة التي تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعا وأحزاباً [1] وكان الإمام علي ـ كما تشهد سيرته وأحواله وأقواله ـ زعيما للبؤساء والمستضعفين والمحرومين (ولم يكن الخداع والحيل من مذهب علي عليه السلام ، ولم يكن عنده غير مر الحق) [2]

فمواقف رجال مجلس الشورى أثناء بيعة عثمان لا يمكن فصلها عن مشاعر البشر ، والمكاسب التي حققوها في ظل سياسة

---

(١) نفس المصدر : ص ١٠٩ .

(٢) الفخري لابن طباطبا : ص ٦٣ ، مصر ١٣٣٩ هـ .

Books.Rafed.net

اقتصادية معينة ، فكانت المفاضلة بين عثمان وعلى لا على أساس الأكفأ والأحق ، بل على أساس الحفاظ على الوضع الراهن والسياسة المفيدة ، ومن هنا نفهم الإصرار على ضرورة اتباع سيرة أبي بكر وعمر ، ثم الميل من بعد الى من يرجى منه عدم المساس بالمكاسب المادية والإجتماعية التي نالوها فيما سبق .

نقل ابن خلدون في مقدمته عن المسعودي قوله (في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان له يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار ، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربط عبدالرحمن بن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم . وبلغ الربع من متروكة بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار.

Books.Rafed.net

وبنى الزبير داره بالبصرة وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية، وكذلك بني طلحة داره بالكوفة ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج . وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ، ورفع سمكها وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات) [1]

هكذا كان وضع أكثر أعضاء مجلس الشورى وما حققوه من مكاسب اجتماعية وسياسية ، لا يمكن إغفال دورها في صياغة الأحداث عند تقييمنا لوقائع تاريخنا السياسية الهامة .

ثم إن ابن سعد روى نصاً غريباً خلاصته أن سعيد بن العاص أتى عمر يستزيده في الأرض ليوسع داره فوعده الخليفة بعد صلاة الغداة وذهب معه حينئذ الى داره ، يقول سعيد :

(فزادني وخط لي برجليه ، فقلت يا أمير المؤمنين زدني فإنه نبتت لي نابتة من ولد وأهل ، فقال : حسبك ، واختبيء عندك (يعني اجعل الكلام في سرك) أنه سيلي الأمر من بعدي من يصل رحمك ، ويقضي حاجتك . قال فمكثت خلافة عمر بن الخطاب

---

(1) المقدمة : ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

Books.Rafed.net

حتى استخلف عثمان وأخذها عن شورى ورضا ، فوصلني وأحسن ، وقضى حاجتي ، وأشركني في أمانته) [١]

فإن صحت هذه الرواية جاز لنا أن نتساءل كيف عرف عمر (رض) أن عثمان سيلي الأمر بعده ؟ أكان ذلك ضرباً من الكشف أم أمراً آخر ؟ وإن كان كشفاً فلماذا يأمره بأن يجعل الكلام في سره ولا يبوح به لأحد ؟

وهناك رواية أخرى تقول (إن عمرو بن العاص كان قد لقي علياً في ليالي الشورى فقال إن عبد الرحمن رجل مجتهد ، وأنه متى أعطيته العزيمة كان أزهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة ، فإنه أرغب له فيك . ثم لقي عثمان فقال إن عبدالرحمن رجل مجتهد وليس وا لله يبايعك إلا بالعزيمة فاقبل) [٢] أي أن عمرو بن العاص خدع علياً وقال له إن عبدالرحمن إذا سألك أتبايع على كتاب ا لله وسنة نبيه وسيرة أبي بكر وعمر ، فقل له بل جهدي

---

(١) طبقات ابن سعد : ٥ / ٣١ ، بيروت ١٩٥٧ .

(٢) الطبري : ٣ / ٣٠٢ .

Books.Rafed.net

من ذلك وطاقتي ، لأن هذا يعجب عبدالرحمن . ثـم قـال لعثمـان أن يقول نعم ، لأن ذلك سيجعله فيك أرغب .

ومع أنني لا أعتقد بصحة هذه الرواية لأن شخصية الإمام علي (ع) لم تكن بهذا الضعف ، كما لم تكن شخصية انتهازية ترضى بسلوك أي وسيلة لتصل الى غايتهـا ، وتجلـس في السـلطة ، وهـو الزاهد الذي كان يرى الدنيا بأسرها أهون من عفطة عنز ، إلا أن الرواية ، بافتراض صحتها ، تشير الى أن الأمر لم يخل من خداع .

وسواء كانت لعبة الشورى ، أم مشورة عمرو ، فالقرار الذي أصدره الإمام علي (ع) بشأن كل ما حدث في تولية عثمان أنـه (خدعة وأيما خدعة) [1] أما معاوية فقال عـن شـورى عمـر فيمـا بعد (لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم ولا خـالف بينهـم إلا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر) [2]

---

[1] الطبري : ٣ / ٣٠٢ .

[2] العقد الفريد : ٤ / ٢٨١ .

Books.Rafed.net

ولأنها كانت كذلك ولم تكن صافيـة بـلا شـوائب ، أدت الى ما نعرفه من حوادث ، وكما ندم أبو بكر (رض) على تقمصها ندم عبدالرحمن بن عوف على فعلـه حتـى قـال لعلـي (ع) (إن شئت أخذت سيفك وآخذ سيفي فإنه خالف مـا أعطـاني وروي كذلك أنه قال لبعض الصحابة في المرض الذي مات فيه (عاجلوه قبل أن يطغى ملكه) [١] وعـاش عبدالرحمـن بـن عـوف لم يكلـم عثمان أبداً حتى مات [٢]

تلك هي بيعـة عثمـان أو الشـكل الثـالث مـن أشـكال تعيـين القيادة في جيل حمل الرسالة ، فاقتدينـا بـه . فـإن جـاء أحـد ممـن نطأطيء لهم فيركبوننا كالمطايا ، وتأسى بهـذه الأسـوة وأتـى مـن الأفعال ما تشابه وأفعال قدوتنا ، فكيف نوقفه عند حده ، وكيف نمنعه ، ما دامت هذه الممارسات تتحكم فينا ، لأننا قدسنا فاعليها وقدسناها معهم ، ولا يجوز لنا الاعتراض عليها أو عليهم .

---

(١) الفتنة الكبرى : ص ١٧٢ .

(٢) العقد الفريد : ٤ / ٢٨٠ .

Books.Rafed.net

٥ ـ معاوية والثورة المضادة

أدت سياسة عثمان (رض) التي ارتكزت على محاباة بني أمية ، وسوء توزيع الـثروة في الدولـة ، ورفـع أسـوأ النـاس علـى رقـاب المؤمنين ، وارتكاب المخالفات القانونية ، وتركـيز السـلطة في يـد عائلة بعينها دون إعتبار للأهلية والكفـاءة ـ كمـا هـو مفصـل في تاريخنا ـ الى تمرد عامة الشعب، وتذمر كبار الصحابة، حتى انتهى الأمر بمقتل الخليفة ، وسقوط الدولة الإسـلامية الناشـئة في دوامـة صراع سياسي خطير . وأخذت الأخطاء التي بدأت قبـل سـنوات بدرجة واحدة ، تتسع على مر الأيام ، ويزداد انفراجها ، حتى وصلـت الأمور الى تحول معاكس للخط الذي تأسست عليه الدولة .

ولأن الثورة على نظام الحكم ـ أي نظـام ـ حـرام لا تجـوز في اعتقاد مؤرخينا الذين نشأوا وتربوا في ظل نظم غير شرعية ، كان لابد من البحث عن تبرير خارج عن العقل والمنطـق ـ كالعـادة ـ لإقناعنا بأنه ما أسقط الدولة وأشاع الفتنة إلا العناصر الخارجية فهم لم يربطوا بين المسببات وأسبابها ، ولم يرجعوا المعلـولات الى عللها، ولم يفتشوا عن أسباب ثورة أهل مصر على عثمان (رض)

Books.Rafed.net

لأن هذا المنهج ـ رغم علميته وإسلاميته ـ سيؤدي الى تخطئة بعض الشخصيات التي يريدون من كل مسلم تقديسها مهما فعلت .

من أجل هـذا اخـترعوا شـخصية خياليـة لم توجـد في التـاريخ أصلاً إلا في أوهامهم ، وسموها عبدا لله بن سبأ أو ابـن السـوداء ، وأطلقوا لخيالهم العنان تحت تخديـر العواطـف ، فتخيلـوا أنـه لابـد وأن يكون يهودياً ، ونسبوا إليه كل الفساد ، ووضعوا على رأسه مسؤولية الثورة والتذمر . فتعيين الخليفة بمجلس شوراه مـن أقربائـه وممن لعنهم أو نفاهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كمروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص ، وعبـدا لله بـن عـامر ، وعبـدا لله بـن سعد بن أبي سرح ، مع وجود أجلـة الصحابـة ، ثـم إطـلاق يـد العائلـة المالكـة وعلـى رأسـها هـؤلاء في تغيـير الدولـة والتلاعـب بشئونها ، وإشاعة الفوضي السياسـية والقانونيـة وتعطيـل أحكـام الشرع ، ثم حماية الخليفة لهم . ووعده بـإصلاح الأمـور مـرات ، واخلافه لهذا الوعد ، واصراره على صحة سياسته التي احتج عليها كل الصحابة إلا المستفيدين ، لم يكن من أسـباب التذمـر . كمـا أن تعيين الخليفة لمرتد أباح الرسول دمه في فتح مكة كعبدا لله بـن

Books.Rafed.net

سعد بن أبي سرح والياً على مصر في وجود أجلاء كعمار بن ياسر ، ومحمد بن أبي بكر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، وغيرهم ، ثم قيام هذا الوالي بتعطيل الشرع ونهب خزانة الدولة واضطهاد النصارى ، وإذلال الناس، لم يكن سبباً كافياً لتذمر أهل مصر ، بل لابد وأن يكون السبب وراء ذلك عبدا لله بن سبأ اليهودي ، ولابد وأن يكون الصحابة الذين ثاروا على فساد نظام الدولة من أتباع هذا اليهودي . تماماً كما تقول الأنظمة المعاصرة عمن ثار عليها ، لأن الثورة على النظم الفاسدة حرام وفتنة وإراقة دم .

ونظرية ابن سبأ التي ساقها مشايخنا في تبرير الكارثة ، يستحي منها كل طفل مسلم به مسكة من عقل ، لأنها تعني أن الخلافة الراشدة والدولة المحمدية كانت من الضعف بمكان بحيث أن يهودياً واحداً استطاع أن يقلبها بغير عناء .

كما أنها تعنى أن كبار الصحابة الذين لم يوافقوا على سياسة عثمان ، لم يكونوا يعرفون دينهم ، فانساقوا وراء مقولة يهودي ودمروا دولة الإسلام .

Books.Rafed.net

ثم ليت مؤرخينا استطاعوا أن يثبتوا دور ابن سبأ في الأحداث، لأنك تراهم يذكرون اسمه في البداية فقط ، ثم تجري الأحداث مجراها الطبيعي محكومة بقوانين العمران والسياسة المنطقية ووفق عللها الطبيعية من تنافس بين الصحابة ، وسوء إدارة الدولة ، وفساد الشورى ، وضغائن القبائل ، وما اليها .

ولأن العلة التي ذكرها المؤرخون ـ أي ابن سبأ ـ علة وهمية ، تراهم على غير يقين منها ، فمرة قالوا وراءها عبدا لله بن سبأ ، ومرات قالوا أن عمرو بن العاص هو محركها ، لأنه كان يؤلب الناس على عثمان حتى رعاة الغنم المتفرقين في الصحراء ، ومرة يعلقون المسؤولية في عنق محمد بن أبي بكر ، وأخرى يضغونها على رأس مروان بن الحكم [١]

وكثير من المؤرخين يقولون أن الأسباب التي نقمها الناس على عثمان كثيرة وخطيرة ، وأنهم رأوا الإعراض عن ذكرها أفضل ، ولم يذكروا إلا ماسمحت به أنفسهم وجادت به وجهات نظرهم.

---

(١) أنظر تفصيل ذلك على سبيل المثال في الطبري : ٣ / ٣٧٨ حتى ٣٩٨.

Books.Rafed.net

فنحن إذن لا نقرأ إلا ما سمحوا لنا بقراءته والإطلاع عليه ، لا ما وقع كله ، وما يدريك لعل فيما لم يذكروه مفـاتيح معضـلات كثيرة ، أو ربما فيه من الحقائق التاريخيـة مـا يكشـف كثـيراً ممـا لم يزل عندنا طلاسم غير مفهومة ؟

إن أحداث المأساة السياسية التي وقعت في عهد عثمان (رض) لم يكن وراءها يهودي ولا نصراني ، بل كانت لها أسبابها وعللها السياسية والإقتصادية والإدارية والإجتماعيـة والنفسـية والفكريـة التي اجتمعت وسارت وفق قوانين التاريخ وسنة ا لله في خلقه .

ومن الأدلة على ذلك أن الصحابة لم يذكروا ابـن سـبأ قـط ، بل منهم من تنبأ بما وقع من الأحداث الجليلـة ، فـانقلاب معاويـة على الخليفة الشرعي وتأمره على النـاس بالسـيف تنبـأ بـه كعـب وغيره من الصحابة [١]

وإنعكاس حال الدولة استشفه علي (ع) [٢]

---

[١] الطبري : ٣ / ٣٨١ .

[٢] الطبري : ٣ / ٤٥٦ .

Books.Rafed.net

كما تنبأ به عثمان نفسه حين ثار عليه أهل مصر فقال (وا لله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان طال عليهم مكـان كـل يـوم بسـنة ممـا يـرون مـن الدمـاء المسـفوكة والإحـن والأثـرة الظـاهرة والأحكام المغيرة) [١]

ذلك أن أحـوال الدولـة وخـط سـيرها كـان واضحـاً أمـامهم جميعاً، ومن ثم استطاعوا أن يروا المصير قبـل وقوعـه ، لأنـه كـان أمراً مفهومـاً ، إذ كيـف يتوقـع ذو عقـل السـلامة لدولـة يديرهـا مجلس شورى من الملاعين والمطرودين ؟

لقد كانت الدولة في عهد عثمـان دخلـت مرحلـة وسـطاً بـين الخلافة والملك ، وكانت تسير بخطى واضحة في طريقها الى نظـام سياسي غير الذي أراده لها مؤسسها ، وكانت هذه حقيقة سياسية يعرفها الكثير . أنظر الى مروان بن الحكم ـــ مثـلاً ـ وقـد حـاصر الناس عثمان فخرج عليهم ليقول لهم (جئتـم تريـدون أن تـنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ إرجعوا عنا) [٢]

---

(١) الطبري : ٣ / ٣٩٣ وانظر كذلك ٣ / ٤٢٥ .

(٢) الطبري : ٣ / ٣٧٩ .

Books.Rafed.net

إن طريقة تفكير الصحابة ومن عاش خلال تلك الأحداث كانت مختلفة عن طريقة تفكيرنا التي ورثناها عن مشايخنا ومؤرخيناه ، ومن هنا لم يؤثر عن أحدهم أنه قال أن سياسة الدولة كانت مضبوطة وأن سبب الفساد كان هذا أو ذاك من اليهود أو النصارى .

وكيف كان من الممكن توقع غير ما آلت إليه الخلافة في الوقت الذي كان يعتبرها مروان بن الحكم ـ كما مر قبل سطور قليلة ـ ملكاً له وعائلته والخليفة حي بين الناس ؟

قتل الخليفة ، وأدرك الناس أن الدولة قد حلت بها كارثة ، فهرعوا الى الإمام علي (ع) يبايعونه وقالوا (إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ولا أقرب من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ، فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً ، فقالوا لا وا لله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك ، قال : ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفياً ولا تكون إلا عن رضا المسلمين) [1]

---

[1] الطبري : ٣ / ٤٥٠ .

Books.Rafed.net

وفي رواية أخرى أنه (حين قتل عثمان رضي ا لله عنه واجتمع المهاجرون والأنصار وفيهم طلحة والزبير ، فأتوا علياً فقالوا يا أبا حسن هلم نبايعك ، فقال : لا حاجة لي في أمركم أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به فاختاروا . فقالوا : وا لله ما نختار غيرك ، فاختلفوا إليه بعد ما قتل عثمان رضي ا لله عنه مراراً ، ثم أتوه في آخر ذلك فقالوا إنه لا يصلح الناس إلا بإمرة ، وقد طال الأمر ، فقال لهم : إنكم قد اختلفتم اليَّ وأتيتم ، وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم ، وإلا فلا حاجة لي فيه . قالوا ما قلت من شيء قبلناه إن شاء ا لله . فجاء فصعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه فقال : إني قد كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم . ألا وإنه ليس لي أمر دونكم ، إلا أن مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم ، رضيتم ؟ قالوا نعم ، قال أللهم اشهد عليهم ثم بايعهم على ذلك [1]

وهذه الروايات ـ إن صحت ـ دلت على أمور :

---

[1] نفس المصدر : ٣ / ٤٥٠ ـ ٤٥١ .

Books.Rafed.net

الأول : أن طريقة اختيار القيادة هذه المرة اختلفت عن المـرات الثلاثة الماضية ، وهذه هي المرة الأولى التي ذهب الناس فيها مـراراً يلحون على شخص أن يتولى قيادتهم ، دون أن يتم الأمـر فلتـة ، أو بالعهد دون مشورة ، أو بمجلس شورى منتقى .

الثاني : أن الإمام علي (ع) ظل يرفض هـذا المنصـب ، ربمـا لأنه كان يعلم أن الدولة قد سارت في طريق وعـر ، وتغـير حـال الناس فيها ، وهو ما سيسبب له بالتأكيد مصاعب في إدارتها ورد الأمور الى مجراها الأصلـي . وربمـا رفـض مـراراً ليثبـت لكـل ذي عينين أنه لم يختلس الأمر ، ولم يسارع اليه ، ولم يلفق لـه الطـرق ويخترع الوسائل ، وإنما كان اختياره اختياراً حـراً مـن قبـل النـاس الذين أصروا عليه ، فهي بيعة صافية رائقة لا يشوبها غبش .

الثالث : أن الإنحراف الذي سـبب الكـوارث الماضيـة كـان في أساسه انحرافاً اقتصادياً مالياً بالدرجة الأولى ، وهو مـا يظهـر مـن عبارته، ولو لم تكن لهذا الأمر علاقـة بمـا جـرى مـا أفـرده الإمـام بالذكر في عهد البيعة الذي له منزلة الدستور.

Books.Rafed.net

الرابع : أن السياسة الإقتصادية والمالية التي سيتبعها الإمام علي ـ أو القيادة الجديدة ـ ستقوم على المساواة وإحقاق الحق والإنصاف وعدم المحاباة والإلتزام الدقيق بالشرع . وأعتقد أن هذا الإحساس الذي لابد وأن كل فرد آنذاك قد شعر به .

وتمت بيعة الإمام بعد أن كانت الدولة قد شهدت تغيرات هائلة في جميع جوانبها الإقتصادية والسياسية والإجتماعية والقانونية ، فغاصت في بحر تعالت أمواجه وهزت كيان الدولة هزاً عنيفاً .

وما أن تولى الأمر حتى بدأ يعيد عربة الدولة الى الخط الذي خرجت عنه ، فعزل العصابة التي استولت على مناصب الدولة العليا ، وولى مكانها أهل الصلاح والتقى ، وسوى بين الناس في الأنصبة ، وكانت بيعته فرصة عظيمة لإعادة الدولة من الطريق المنحرف الى الصراط المستقيم . غير أن السياسات الخاطئة ـ خصوصاً الإقتصادية ـ التي كانت الدولة قد سارت عليها ربع قرن بعد وفاة المؤسس ، أسفرت عن خلق خط سياسي معاد لأية

Books.Rafed.net

إصلاحات اقتصادية ، لا سيما وأن كبار أهل الأثـر والنفـود ـ أو أغلبهم ـ كانوا ممن استفادوا من هذه السياسة الإقتصادية ، وتغـير وضعهم الإجتمـاعي وأصبحـت لهـم مكاسـب ومصـالح مشـتركة يدافعون عنها ، ويرون الحفاظ عليها بأي ثمن .

ومن هنا كانت أزمة الإمـام علـي (ع) الحقيقيـة ، إذ تسـلم السلطة والحمل ثقيل ، والمهمة صعبة ، أضـف الى ذلـك العنـاصر الأخرى كإزدهار بني أمية سياسـياً ، وضعـف أتبـاع خـط الإمـام علي (ع) نظراً لفقرهم وزهدهم ، واستفحال الضغائن القبلية ، والأحقـاد الشـخصية ، وتبـني سياسـة الإنتقـام مـن الإمـام الـذي وتـر بسـيفه كـل بيوتـات الكفـر الـتي تصـدت للإسـلام خـلال الحروب الماضية .

تزعم حركة قلقلة الدولة فريقان :

الأول بزعامة معاوية وكان أقوى وأكبر كما كانت له مطامع قبلية معروفة ، وهو من البيت الذي ظل يحارب الإسـلام ودعوتـه حتى فتحت عليه مكة واضطر للإسلام قبل أشهر قليلـة مـن وفـاة الرسول عليه وآله الصلاة والسلام .

Books.Rafed.net

وهـذا الفريـق نجـح في اسـتقطاب النـــاس بالعطايـــا والوعـــود والهدايا، واتخذ من دم عثمان حجة للثـورة علـى الخليفـة الشـرعي ونشر الفوضى في الدولة الإسلامية .

والثـاني بزعامـة أم المؤمنـين عائشـة وطلحـة والزبـير ، وهـــذا الفريق أقل وأضعف ، لكنه أيضا استتر بالمطالبة بـــدم عثمـان دون وجه حق، وكانت الدوافع مختلفـة ، فـأم المؤمنـين عائشـة كـانت بنفسها تحرض الناس على قتال عثمان وتقول لهم صراحة : اقتلوه، وترميه بالكفر [١]

وكذلك فعل طلحة وكان من أكبر المساعدين على قتله [٢]

ثم بايع هو والزبير الإمام في البداية ، ثم انقلبا عليه لما رفض طلبهما بتولي إمرة البصرة والكوفة ، وادعيا أنهما بايعا مكرهين . [٣]

---

(١) الطبري : ٣ / ٤٧٧ .

(٢) الفخري لابن طباطبا ، ص ٦٠ قال وهذا تشهد به جميع التواريخ .

(٣) الطبري : ٣ / ٤٥١ ـ ٤٥٢ . وانظر تفصيل وقائع هذا الـدور في جميـع كتـب التاريخ المعتبرة .

Books.Rafed.net

نعم ندمت عائشة على خروجها على الإمام على كما ندم غيرها ، لكنهم ندموا بعد أن كان الخراب قد عم .

واضطر الإمام لأن يواجه ثلاث حروب طاحنة في أقل من خمسة أعوام هي مدة حكمه . فانهزم له الفريق الثاني في موقعه الجمل ، وأوشك الفريق الأول في صفين على الهزيمة ، فلجأ الى حيلة التحكيم ورفع المصاحف ، كما هو مشهور لدينا معروف ، وانتهى الأمر بالكذب والخداع .

وظهر الى الوجود من بعد فريق ثالث هم البغاة الخوارج ، الذين اضطر الإمام لقتالهم في النهروان .

وعاش الإمام ولا سلطان له على الشام مركز معاوية ، وأقام البغاة دولة داخل الدولة الى أن قتل الإمام علي يد ابن ملجم المصري لعنه الله . ولأن الأمة لم تكن ترى أحداً من زعماء الفريقين المذكورين يستحق القيادة بايعوا الإمام الحسن بن علي عليه السلام ، فرأى أن يهادن قليلاً لتستتب الأمور ، وتهدأ العاصفة ، لكن نفراً من أتباعه ثاروا عليه ، وهجموا عليه وجرحوه ونهبوا متاعه ، فاضطر في النهاية للتفاوض مع معسكر

Books.Rafed.net

البغي ليحقن دماء أتباع أهل البيت ، الذين كادت السيوف الباغية أن تستأصلهم من جذورهم . وشرط له معاوية شروطاً لم يف بأي منها ، بعد أن تمكن من السلطة بحد السيف عام ٤١ هـ وهو ما قيل لنا عنه أنه عام الجماعة ، ولم يكن إلا عام الفرقة والاستسلام للبغي وإنقلاب خلافتنا ملكاً عضوضاً .

ثم دس معاوية للحسن السم وإنفرد بالأمر ... وهذا كله مفصل في كتب التاريخ كلها فليرجع اليه من شاء ، وقد أعرضنا عن تفصيله لما يقتضيه المقام من الإختصار .

ركب معاوية السلطة ، ووقف بعدها ليعلن فصل الدين عن الدولة صراحة ، ويقول (يا أهل الكوفة أترونني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم وأَلي رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم له كارهون . ألا إن كل دم أصيب في هذه مطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين) [1]

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٦ / ٢٢٠ ، مصر ، ١٣٥٦ هـ .

Books.Rafed.net

وهذا منه إعلان صريح بما يلى :

١ ـ أن العبادات قد فصلت عـن القيـادة والسياسـة ، فـالأولى لكم فيها اتباع الشرع وما قـال الله وقـال الرسـول ، والثانيـة لي وأنا حر فيها .

٢ ـ أنه قاتل الناس ليتأمر عليهم ، ويأخذ القيادة بحد السيف .

٣ ـ أن الناس كارهون له في ذلك ، إذ لم يكن ما فعله يحظـى بذرة رضا .

٤ ـ التخلص من كل العهود والمواثيـق والشـروط الـتي قطعهـا على نفسه مع الإمام الحسن ومع الأشخاص والقبائل ، وأن الدماء التي أريقت في سبيل وصوله الى السلطة ، والمعارك التي قتـل فيهـا عشرات الألوف من المسلمين لاحساب عليها ولا قود ولاعقاب، وعلـى الأمـة إذن أن تنسـى ماكـان، وتبـدأ صفحـة جديـدة مـن تاريخها، الذي ستبدأ أحداثه وفق تصور جديد ، وسياسة مغايرة .

ثم قاد معاوية الثورة المضـادة بمعنـى الكلمـة ، فأسـس جهـازاً لتشويه أهل الحق ، وآخر لتصفيـة المعـارضين جسـدياً ، واخـترع

Books.Rafed.net

الأحاديث ، ولفق التفاسير ، وأنشأ الفرق الفكرية المعارضة ، ونشر بين المسلمين السكوت على الظلم والظالمين بل وتأييدهم ، وأن الأسلم لهم عند احتدام المعركة بين الحق والباطل الفرار الى رؤوس الجبال خشية الفتنة ، وأرهب الآمنين من الناس ، وصادر أموال المعارضين ظلماً وعدواناً ، وأغدق أموال الدولة على حزبه ومؤيديه ، وعطل الحدود وأوقف الشرع ، وابتدع في الدين على النحو المفصل في تاريخنا المقروء الذي يعرفه كل صبى .

غير أن خطورة ما فعله معاوية تكمن في أنه ما فعله باسم أية نظرية أخرى صراحةً بل باسم الإسلام ، فإذا الإسلام الذي قدمه للناس شيئاً آخر يعاكس تمام الإسلام المحمدي . فكان ثورة مضادة سارت في الإتجاه المعاكس كلية ، لكنها تحمل اسم الإسلام القديم .

وأخطر من هذا كله أن مشايخنا وعلماءنا ــ إن صح وصفهم بالعلماء ـ غلفوا هذا السم الزعاف بطبقة حلوة المنظر ، وقالوا لنا إنه لم يكن انقلاباً على الإسلام بأي معنى بل كان إجتهاداً ،

Books.Rafed.net

وأخذنا نحن من أيديهم هذا السم المدسوس ، واعتقدنا أنه الدواء الناجع الفعال الذي يشفى ما بنا ـ بل وما بالأجيال المسلمة الى يوم القيامة ـ من كل الأسقام ، واشتركنا معهم في هذه الجريمة ، وضللنا معهم أنفسنا وأبناءنا والأجيال التالية ، ولم نفكر لحظة في أن ما قاله مشايخنا ينبغي فحصه والتروي في قبوله ، وأن الأخطاء المخالفة للإسلام لابد وأن نعترف بها ونتجنبها في كل مسيرة ، ليكون ما لدينا من إسلام صافياً رائقاً ، وتمادينا تحت تخدير العواطف فإذا بنا ليوم في مآزق وحفر عميقه حفرها لنا علماؤنا ، وقفزنا فيها بإرادتنا دون وعي ، ولا نستطيع اليوم أن نخرج منها.

والأغبى من هذا التصرف ، أننا نبصق في وجه كل من ألقى لنا حبلا من عقل لنستمسك به ، ونخرج من هذه الحفر الى حيث الهواء النقي، والفكر الإسلامي الحر ، الذي لا يقدس الأوراق ولا الأشخاص، إلا ما ومن كان منها مقدساً يستحق التقديس حقاً .

هكذا رأينا كيف اختارت الأمة قيادة باختيارها الحر في النور، كما حدث مع الإمام علي (ع) بعد أن كان الوقت المناسب قد

Books.Rafed.net

مضى ، وهو ما يعتبر شكلاً آخر من أشكال تعيين القيادة يختلف عما سبقه من أشكال .

ثم ما إن تولت القيادة الجديدة حتى بدأت الطوابير الخفية في العمل لإقصائها ، فرأينا شكلاً وأسلوباً آخر للقيادة هو ما فعله معاوية ، وهو ما يقودنا الى نتائج تستحق إمعان الفكر :

أولاً : إن بيعة علي (ع) إذا كانت هي الصواب أو الطريق الطبيعي لاختيار القيادة ، لأنها تمت برضا المسلمين ومشورتهم ، فما حكم ما فعله معاوية ؟ وإن كان ما فعله معاوية لا غبار عليه، فكيف يمكن الدفاع عن بيعة علي (ع) ونحن أهل السنة نؤمن بخلافته الراشدة وبيعته السليمة ؟

ثانياً : أن الطريقة التي وصل بها معاوية الى الحكم وتصدر القيادة إن كانت صحيحة وفق الإسلام ـ ولا أعتقد بصحتها أبداً ـ فكيف يمكن إغلاق باب البغي والإنقلابات العسكرية ضد النظام الإسلامي ، إن شاء له الله أن يقوم هنا أو هناك ؟ لأن هذا يمكن أن يقع في أي وقت بعد اللحظة الأولى التي تتأسس فيها دولة إسلامية .

Books.Rafed.net

فما موقفنا من هذه الإنقلابات ومن يفعلها ، بشرط أن يكون موقفا متسقاً مع تاريخنا وإسلامنا ، لأننا إذا آمنا بما فعله معاوية ، ثم أدانت أجيالنا الإنقلابات العسكرية كطريق للوصول الى السلطة وأخذ القيادة ، وقعنا في تناقض يعطي من قام بالإنقلاب فرصة ليقول : وا لله أسوتي في ذلك معاوية ، وأنتم لستم بأعلم منه ولا تعتقدون بخطئة . فماذا نقول له ؟

ثالثاً : أننا لا نستطيع اعتبار طريقة معاوية شكلاً من أشكال الإسلام ، ثم في نفس الوقت نؤمن بعدم شرعية النظم التي تركبنا، خصوصاً في الدول العربية ، لأن كل هذه النظم في حقيقة الأمر امتداد لنظام معاوية تستمد منه شرعيتها في الإستيلاء على قيادة الأمة ، وتقتدي به .

وقد يقول أحدنا : يا عزيزي إن عدم شرعيتها في أنها لا تطبق الإسلام ولا تحكم بما أنزل ا لله ، فأقول : قد فعلها النميري من قبل وضياء الحق ، فهل صارت نظمهما إسلامية ؟ وأين الإسلام الذي طبقوه ، ولماذا لم يستمر بعدهم .

Books.Rafed.net

إن هذه الجنينية في التفكير ـ التي تزعم أن الحاكم إذا شرع في تطبيق الإسلام ، وجب علينا أن ندعوه أمير المؤمنين بصرف النظر عن طريقة وصوله الى القيادة ـ لو تمسكنا بها ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لأن الشرعية شيء آخر ولها معايير مختلفة ، وهو ما قد أشير اليه في الباب القادم .

نحن إذن أمام معضلة وعلينا حلها : إما أن يكون أسلوب معاوية وأفعاله خطأ ، وبالتالي فالأنظمة التي تركبنا اليوم في العالم العربي والإسلامي خطأ وغير شرعية . وإما أن نعتقد صحة طريق معاوية ، ولا نستطيع أن نمس هذه الأنظمة بسوء ، وتكون كلها على صواب وشرعية ، وإياكم وأن تفتحوا فمكم بكلمة ضدها .

يقول معاوية لسفيان بن عوف الغامدي أحدقادته العسكريين، وقد بعثه ليغير على المسلمين في العراق :

(إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم ، وتفرح كل من له هوى فينا منهم ، وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل كل من لقيته ممن ليس على رأيك ، وأخرب كل

Books.Rafed.net

ما مررت به من القرى ، وأحرب الأموال فإن حرب الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب) [1]

هذا مثل من آلاف الأقوال والسياسات التي أثرت عن معاوية، وحفظتها لنا كتب التاريخ ، فماذا لو اقتدى بها حكامنا ، أنغضب ونسب ونلعن ؟ وإذا قالوا : إن لنا في معاوية أسوة حسنة وقد سبقنا إليها ومعه أكثر الصحابة ، وما اعترض عليه أحد من كبارهم وهم أهل العقد والحل ، فماذا نقول لهم ؟

وإذا راق للبعض أن يقولوا إن الجيل الأول كانوا صحابة ، أما نحن فلسنا بصحابة . قلنا أفنزلت الشريعة سواء للكل وفي كل العصور ؟ أم استثني الصحابة من أحكامها ؟ أم أن لدينا شريعتن أحدهما للصحابة والجيل الأول والثانية للمسلمين من الدرجات الثانية والعاشرة أمثالنا ؟ فإن كان لدينا دليل على أن ما ينطبق علينا لا ينطبق على الصحابة فأين هو ، هاتوه ففيه حل جميع المعضلات .

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد الشافعي : ٢ / ٨٥ ـ ٨٦ .

Books.Rafed.net

إن وصول معاوية إلى قيادة خير أمة لم يكن غير نتيجة منطقية لأزمة القيادة التي ألقى الأمة والدولة في دوامتها نفر من كبار الجيل الأول ، لاعتبارات آخر ما فيها مصلحة الدين والدولة ، فظلت مخالفاتهم تتعاظم يوماً بعد يوم حتى وجد المسلمون أنفسهم بين أنياب بني أمية ، ومنذ ذلك الحين ونحن نتوارث هذه السياسات، يحكمنا بها الطواغيت، فيركبوننا ويقضون علينا مآربهم ، ونستكين لهم بهذه السياسات ، لا فرق بين ماضينا وحاضرنا ، فما نراه اليوم ليس إلا صورة عصرية مما ارتكبه الأوائل ومارسه السلف ، وليس من سبيل الى إصلاح الحاضر إلا بالوقوف موقفاً محدداً من هذا الماضي ، ورفض ما خالف ومن خالف فيه أحكام الإسلام ، وهي واضحة جلية من أجل أن نعرف رأسنا من أرجلنا ، على الأقل قبل قليل من يوم القيامة .

لكن مصيبتنا السوداء أننا نعيش على فتات ماضينا ، نلوك حوادثه ، ونمضغ سيرة السلف دون أن نزيل عنها ما علق بها ، فيتحول كل هذا في دمائنا أفيوناً وبلادةً ، دون أن نحس، لأن

Books.Rafed.net

هذه الوقائع قد حولت الى معتقدات تقدم لنا ملفوفة في أوراق إسلامية، حملت أسماء مشاهير ، وما طبعت إلا في مطابع السلطة.

هذه هي وقائع تاريخنا التي صاغ على أساسها فلاسفتنا ومفكرونا ما صبوه فينا من فكر سياسي . وليتهم تركوا لنا الخيار لنزن ما يقولونه وما يقوله المعارضون للسلطة ، بل شنوها حربا شعواء على من عارض السلطان ، ورموهم بما ليس فيهم ، وكفروهم ، فإذا المسلم اليوم لا يطيق أن يسمع رأياً معارضاً ، ولا يرى بين المسلمين مسلماً إلا نفسه وفرقته ، ولا يرى الإسلام والعقيدة الصحيحة إلا في أقوال ابن فلان وابن فلان ، فاتسعت الشقة بين من يعارضون (فكر السلطة) ونظرياتها في الحكم والسياسة ، وبين الأغلبية العظمى التي تردد بلا وعي (فكر السلطة) وتريد في نفس الوقت أن تصل الى السلطة وتسقط الأنظمة وتبيد الطواغيت .

Books.Rafed.net

Books.Rafed.net

فكرنا السياسي إسلامي أم سلطوي؟.....١٢٧

فكرنا السياسي إسلامي أم سلطوي ؟

هذه الأحداث التي ذكرناها في الفصل السابق باختصار ، هي أهم جزء في تاريخنا السياسي ، ومن هنا فليس بمستغرب أن تكون هي الأعمدة التي قام عليها صرح ما لدينا من فكر سياسي ودستوري نسبناه للإسلام .

كما أن هذه الاحداث العظيمة كان لها أسوأ الاثر على كيان الأمة الواحدة ـ وهي خير أمة ـ لأنها قسمتها ثلاثة قطاعات :

قطاع استولى على السلطة ـ بهذه أو تلك من الطرق ـ على النحو الذي رأيناه ، وبالممارسات التي سجلتها لنا كتب الحديث والتاريخ . وقطاع آخر معه شيء آخر كان ينبغي سماعه ودراسته ولا زال . وهؤلاء حرموا حق التعبير عن أنفسهم في شكل كيان

Books.Rafed.net

سياسي مستقل ، وحوصروا إعلامياً واقتصادياً ، ثم قتلوا وشردوا وذاقوا الأمرين ، فبقـوا في زوايـا التـاريخ متمسـكين بمـا عندهـم، ثابتين عليه معارضين لكل النظم، شاعرين بـأن الحـق معهـم لكنـه سلب ، فكان ذلك سبب انهيار الدولة .

وقطـاع ثـالث رأى تنـافس القطـاع الأول ، واسـتئثاره علـى الآخرين ، فظل ينظر الى الكبار وأفعـالهم وممارسـاتهم ، ويتأسـف لها ولا يبدي رأياً، وساعده على الإعتزال قوة شـوكة الكبـار مـن الفريق الأول ، وعدم اشراكهم له في شيء له فيـه حـق . وهـؤلاء هم العامة من الناس .

وظل الوضع على هذا . نعم كان من هم في السلطة يشـعرون بخطر المعارضين، لكنهم لم يقاوموهم فكرة بفكرة، إذ جعلتهم قوة الحكم والسلطان في غير حاجة لفكر متين، فأسفر ذلك عن أمور:

الأول : أن الفكر السياسي عند أهل السنة بـدأ متـأخراً جـداً إذا قورن بفكر شيعة أهل البيت الذين بقوا في المعارضة . ولما قـرر علماؤنا أن يكتبوا في السياسة والدستور وجدوا أن هذا العلـم قـد

Books.Rafed.net

تبلور واستوى ووضعت مصطلحاته ـ في غفلة منهم ـ على يد أنصار أهل البيت المعارضين ، فلما شمروا عن سواعدهم وسيقانهم ليخوضوا في هذا البحر، وتكلموا فيه ، جاء كلامهم سطحياً وكتاباتهم غير مؤصلة .

الثاني : أن علم السياسة عندنا أهل السنة ، ما كان يملك نظرية سياسية واضحة قائمة برأسها يتخذها أساسا لما يريد أن يتكلم فيه ، ومن ثم جاءت كتابات من كتبوا فيه رد فعل لآراء المعارضين ، فبدت كأنها إجابات ـ مجرد إجابات ـ لرد أقوالهم ، وسد الخانات بأي شكل وأي كلام .

وأول من تكلموا في هذا العلم عندنا كالماوردي ، وأبي يعلى، وابن العربي المالكي ، وابن خلدون ، والجويني ، وغيرهم ، عاشوا في حدود القرنين الرابع والخامس الهجري ، وكان الآخرون قد سبقوهم بأربعة قرون على الأقل هي نفس الفارق في النضج السياسي اليوم بين أتباع المدرستين .

الثالث: أن هؤلاء العلماء لم يحاولوا تأسيس نظرية مختلفة، ولكن نحوا منحى خطيراً للغاية اذ أسسوا كتاباتهم على أربعة أسس :

Books.Rafed.net

الأول : المصادقة على الأمر الواقع، واعتبار أن نتائج الأحداث التي وقعت هي عين ما كان ينبغي أن يكون ، بل وهي الاسلام ونظريته السياسية .

الثاني : أنهم في تأييد ذلك فتشوا في القرآن والحديث عن نصوص فأولوها تارةً ولووا أعناقها تارة ليلائموا بينها وبين الأحداث ، بصرف النظر عن موقف الاسلام الحقيقي .

وهذه العملية التي مارسوها لأسلمة وقائع ونتائج ربما كانت غير إسلامية أجبرتهم على تفصيل حلل وأثواب من الأدلة الواهية، فأدى ذلك الى أمرين ، الأول : إضفاء القداسة على أحداث التاريخ البشري الخاص بتلك الحقبة ، فاعتبرناه عبر أجيال طويلة جزءً من الدين له قداسته واحترامه بكل ما فيه ، ولو كان مخالفا للدين في بعض الأحيان. والثاني : أن كتاباتهم ـ أودعنا نقول ما قدموه من نظرية سياسية إسلامية ـ جاءت تبريرية تهيىء للحكام ـ كل الحكام صالحهم وفاسدهم ـ أدلة شرعية لتبرير أفعاله ، ولعل لافتة (الاجتهاد) التي لصقوها على أفعال الحكام جميعاً منذ وفاة

Books.Rafed.net

الرسول عليه وآله الصلاة والسلام حتى العصر العباسي هي أوضح نموذج لهذه الأدلة التبريرية ، مع التغاضي عن موقف الاسلام الصحيح خلال كل هذه الممارسة .

وحملنا معنا هذا كله في أوردتنا وشرايينا ، وتناقلته خلايانا الوراثية عبر قرون وقرون ، فإذا بحكام اليوم يرتكبون الأخطاء ، فتوقع المعاهدات اللاإسلامية مثلاً ، أو تستدعي قوات الإحتلال من هنا وهناك ، ثم تجدنا نتساءل بين أنفسنا : وما حكم الاسلام في هذا ؟

وتجدهم ـ وهم أصلاً حكام وأنظمة غير شرعية ـ يلجؤون الى العلماء ـ إن صح تسميتهم بهذا ـ ويطلبون منهم التبريرات ، فإذا بمشايخنا يخرجون من بطون الكتب ما شاءوا ويفصلون للافعال غير الإسلامية أثواباً إسلامية ، مزينة بآيات من القرآن وأحاديث الرسول .

إنها عملية متصلة منذ قديم ، فكما فعلوا في الماضي يفعل أمثالهم في الحاضر . فإن قلتم إن أهل الحاضر يقلدون أسلافهم ، قلنا فمن كان قدوة الأسلاف ؟

Books.Rafed.net

إن المسألة معكوسة تماماً ليس فيهاتقليد بل هي مدرسة فكرية، واتجاه سياسي توارثناه ، لأن طبيعة الفكر السياسي عندنا تبريرية، هدفها التعايش مع الواقع ومع كل الأنظمة أياً كان نوعها .

الثالث : أنهم فهموا الشرعية القانونية بمفهوم سقيم ـ وإن كان له مؤيدوه في العصر الحاضر ـ فاعتبروا التمكن هو الشرعية ، والقيادة المتمكنة هي القيادة الشرعية ، بصرف النظر عن طريق تمكنها ، وأسلوب وصولها . فإذا وصل رجل ما ـ أي رجل ـ الى مركز القيادة ، وتمكن من أعنة الحكم ، فهو حاكم شرعى وقيادة شرعية نتعامل معها على النحو الذي يأمر به الاسلام ، فيصبح واجبنا السمع والطاعة ، ويصبح أسلوب وصوله إسلامياً .

وهذا سفه فكري ، لأن الشرعية في جميع قوانين الأرض والسماء غير التمكن ، فالشرعية تقوم على مواصفات إن وجدت أصبح الشيء شرعياً ، وإن لم تتوافر هذه المواصفات فلا يصبح الشيء أو النظام شرعياً ، مهما بلغ حجم التأييد فيما بعد ، لأن وجود الشيء بالفعل لا يعني شرعيته .

Books.Rafed.net

ولو سلمنا بوجهة نظر هؤلاء كـان علينـا الإعـتراف بـأن كـل الأنظمة التي تركبنا اليوم شرعية لا غبار عليها ، لأنها متمكنة مـن السلطة ، وهذا رأي فاسد .

على أن ضمير الأمة ووجدانها الاجتماعي والديني ظل يرفــض هذه النظرية ـ ولا زال ـ ومن هنــا وجدنـا في العصـور الأولى مـن كان يعرف اصطلاحـاً بـ (الامـام بـالفعل) و (الامـام بـالحق) فالأول هــو الشـخص المتمكـن مـن السـلطة فعـلاً ولديـه القـوة ، والثاني هو الإمام الشرعي الذي كان ينبغي وجوده في السلطة و لم يحصـل ، وعـادة مـا كـان النـاس يوالـون الثـانى ويلتفـون حولــه ويحترمونه ، رغم كونه لا حول له ولا قوة .

وأمثلة هذا في السير والتاريخ كثيرة لا داعي لذكرها هنا فــإني أخشى الإطالة .

إن السلطة ـ أي سلطة ـ حقيقة واقعية ملموسة وموجودة أمام النـاس بأشـكال مختلفـة ، لكـن شـرعيتها ليسـت في مجـرد كونهـا كذلك أو في وجودها الفعلي في حيزالزمان والمكان، بل في كونها

Books.Rafed.net

جاءت بالطريق الشرعي وتمثل الإرادة العامة لأفراد المجتمع ، والعقل العام للمجتمع من حيث هو مجموعة أفراد ينتمون الى نظرية ما ، بشكل أو آخر .

وكان من نتائج الاقتصار على اعتبار الشرعية مرادفاً لمجرد الوجود مهما كانت طريقة تحقيق هذا الوجود ، أن وقع الإنفصام بين المجتمع وبين السلطة على مدى تاريخنا الإسلامي . ولا زلنا نرى هذا الإنفصام حقيقة شاخصة أمامنا ، لأن المذهب السياسي هو بعينه لم يتغير بعد ، ويعتمد ـ كما كان من قبل ـ على المعيار الصوري للشرعية لا المعيار الموضوعي لها . فهناك دساتير رسمية أقرتها وتقرها المجالس النيابية المختلفة المنتخبة ، وهناك هيئات تشريعية تسن القوانين وتضع القواعد ، وهناك أحزاب وصحف ومنابر ، لكن هذا كله غير مبني على المعيار الموضوعي للشرعية ، وهو ما يعتمد على أمرين ، أولهما : أن يكون هذا كله نابعاً من العقل العام والإرادة العامة للمجتمع ، فما أسهل تلفيق الدستاتير وطبخ القوانين وتزوير الإنتخابات والإستفتاءات .

Books.Rafed.net

وثانيهما ـ وهو الأهم ـ أن تكون خلف هذا كله نظرية هي في ذاتها شرعية ، فإن كانت هناك نظرية شرعية ، أو قل مشروعة ، ثم اتخذت إجراءات شكلية لتسيير الأمور لا يتوفر فيها المعيار الموضوعي للشرعية ، أدَّى ذلك الى مهالك أقلها انفصام المجتمع وعقله ومزاجه العام عن السلطة الحاكمة ، فتصبح هى في واد والشعب في واد .

الرابع : أنهم وضعوا لأسلمة الأحداث والإجراءات التي رأيناها وإضفاء الشرعية عليها أساساً واهياً هو عدم اعتراض الناس أو من أسموهم اصطلاحاً بالجمهور . أي أن سكوت أفراد المجتمع على شيء يعنى شرعيته ، وهو أساس مختل ، لأن أسباب السكوت قد تكثر وتتنوع ، فربما سكت الناس بسبب الإنفصام بينهم وبين السلطة ، أو بحكم القوة ، أو بفعل الخوف ، أو ربما الجهل ، أو سلبية التعبير عن الرفض ، أو ربما غير ذلك ، وهذا كله يتشكل في هيئة سكوت .

فالسكوت إذن ليس دليلاً على الرضا أبداً .

Books.Rafed.net

ثم اذا أخذنا بهذه القاعدة الآن كان علينا التسليم بشرعية كل النظم التي تركبنا ، لأن الناس أو على الأقل الأغلبية الساحقة ساكتة لا تتحرك ضدها . وأساس السكوت هذا تعتمد عليه هذه الأنظمة في إثبات شرعيتها للعالم الخارجي ، وكلنا يعرف أسباب السكوت ، لكنه يؤمن بعدم شرعيتها .

هذا النقد ليس تجنياً

هذا النقد المختصر لمذهب من كتبوا لنا في التاريخ والسياسة منذ القدم ، ونسبوا مقالاتهم للاسلام ليس تجنياً عليهم ، ولا من باب تحويل الحبة الى قبة ، بل هو بالفعل منهج مدون مطبق ، وفي سبيل إثباته أستعرض هنا شيئاً من آراء بعضهم فيما يخص موضوع الكتاب ـ أي القيادة أو ما أطلقوا عليه اصطلاح الإمامة والخلافة ـ وهو موضوع واحد فقط من موضوعات علم السياسة. فالقيادة عندهم (تنعقد من وجهي أحدهما باختيار أهل الحل والعقد، والثاني بعهد الإمام من قبل. فأما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم

Books.Rafed.net

على مذاهب شتى . فقالت طائفة لا تنعقد إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ، ليكون الرضا به عاماً والتسليم لإمامته إجماعاً، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبى بكر على الخلافة باختيار من حضرها ، و لم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها .

وقالت طائفة أخرى : أقل ما تنعقد به الإمامة خمسة يجتمعون على عقدها ، أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة استدلالاً بأمرين أحدهما أن بيعة أبي بكر رضي ا لله عنه انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ، ثم تابعهم الناس فيها وهم : عمر بن الخطاب وأبوعبيدة بن الجراح وأسيد بن حضير وبشير بن سعد وسالم مولى أبى حذيفة رضي ا لله عنهم .

والثاني : أن عمر رضي ا لله عنه جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة ، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة .

وقال آخرون من علماء الكوفة تنعقد بثلاثة يتولاها أحدهم برضا الاثنين ، ليكونوا حاكماً وشاهدين ، كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين .

Books.Rafed.net

قالت طائفة أخرى تنعقد بواحد . (١)

وأوضح امام الحرمين عبد الملك الجويني هذه النقطة فقال (لا يشترط في عقد الإمامة الإجماع بل تنعقد الإمامة وإن لم نجمع الأمة على عقدها . والدليل عليه أن الإمامة لما عقدت لأبي بكر ابتدر لإمضاء أحكام المسلمين ، ولم يتأن لانتشار الأخبار الى من نأى من الصحابة في الأقطار ، ولم ينكر عليه منكر ، ولم يحمله على التريث حامل ، فإذا لم يشترط الإجماع في عقد الإمامة ، لم يثبت عدد معدود ولا حد محدود ، فالوجه الحكم بأن الإمامة تنعقد بعقد واحد من أهل الحل والعقد) (٢)

وقال القرطبي في معرض تفسيره لقوله تعالى (**إني جاعل في الأرض خليفة**) فإن عقدها واحد من أهل الحل والعقد فذلك ثابت ... ودليلنا أن عمر عقد البيعة لأبي بكر، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ذلك... قال الإمام أبو المعالي : من انعقدت له

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي : ص ٥٠٤ .

(٢) الإرشاد للجويني : ص ٤٢٤ ، مصر ١٣٦٩ هـ .

Books.Rafed.net

الإمامة بعقد واحد فقد لزمت ، ولا يجوز خلعه من غير حدث وتغير أمر ، قال : وهذا مجمع عليه) [١] وكرر نفس الكلام القاضي عضد الدين الايجى) . [٢]

(وأما انعقاد الامامة بعهد من قبله فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ، ووقع الإتفاق على صحته لأمرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما . أحدهما : أن أبابكر رضي الله عنه عهد بها الى عمر رضي الله عنه ، فأثبت المسلمون إمامته بعهده ، والثاني : أن عمر رضي الله عنه عهد بها الى أهل الشورى، فقبلت الجماعة دخولهم فيها، وهم أعيان العصر اعتقاداً بصحة العهد بها ... والصحيح : أن بيعته منعقدة ، وأن الرضا بها غير معتبر ، لأن بيعة عمر رضي الله عنه لم تتوقف على رضا الصحابة ، ولأن الإمام أحق بها) [٣]

---

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٢٦٨ ـ ٢٧٢ ، مصر ١٣٨٧ هـ .

(٢) المواقف : ٨ / ٣٥١ ـ ٣٥٣ ، مصر ١٣٢٥

(٣) الماوردي : ص ٨ .

Books.Rafed.net

(وان كان ولي العهد ولداً أو والداً فقد اختلف في جواز انفراده بعقد البيعة) [١] وساق الماوردي ثلاثة آراء بعضها يجيز بلا شرط ، وبعضها يجيز بشرط ، والحاصل : أنه يجوز عقد الإمام البيعة لولده ووالده . (فأما عقدها لأخيه ومن قاربه من عصبته ومناسبه ، فكعقدها للبعداء الأجانب في جواز تفرده بها) [٢] أي لا إشكال فيه .

(ولو عهد الخليفة الى اثنين أو أكثر ، ورتب الخلافة فيهم فقال : الخليفة بعدي فلان ، فإن مات فالخليفة بعد موته فلان فالخليفة بعده فلان ، جاز ، وكانت الخلافة منتقلة الى الثلاثة على ما رتبها . . . فقد عمل بذلك في الدولتين (يقصد بنى أمية وبنى العباس) من لم ينكر عليه أحد من علماء العصر ، هذا سليمان بن عبدالملك عهد الى عمر بن عبدالعزيز ، ثم من بعده الى يزيد بن عبد الملك ... وقدرتبها الرشيد رضي الله عنه (كذا) في

---

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩ .

Books.Rafed.net

ثلاثة من بنيه في الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن) [١] وزاد أبـو يعلـى على هاتين الطريقتين في تعيين القيادة ـ أقصد العهد أو البيعـة ولـو من واحد ـ طريقة ثالثة إذ نقل عن أحمـد بـن حنبـل قولـه (ومـن غلبهم بالسيف حتى صـار خليفـة، وسمـي أمـير المؤمنـين، لا يحـل لأحد أن يبيت ولا يراه إماماً عليه ، براً كان أو فاجراً ، فهو أمـير المؤمنين) وقال أيضاً في رواية المـروزي : فـان كـان أمـيراً يعـرف بشرب المسكر والغلول ، يغزو معه ، إنما ذلك له في نفسه) [٢]

واذا ارتاح بعضنا لفكرة أهل الحل والعقد ، وتخويلهم سلطة اختيـار القيادة ، فمن الذي يختار أهل الحل والعقد هؤلاء ؟ فهل يجـوز للخليفـة ذلك ؟ (يجوز لأنها من حقـوق خلافتـه) [٣] (ولا يجـب علـى كافـة الناس معرفة الإمام بعينه واسمه إلا من هو من أهل الاختيار) [٤]

---

(١) الماوردي : ص ١١ .

(٢) ابو يعلى : ص ٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠ .

(٤) الماوردي : ص ١٣ ، أبو يعلي : ص ١١

Books.Rafed.net

والاسترسال في سرد آراء علماءنا ومشايخنا في هذا الموضوع ، وإن كان نوعاً من الفكاهة ، وضرباً من التسلية ، إلا أنه بلا ريب مضيعة للوقت ، ولذلك أكتفي بهذا القدر .

هذه هي بضاعتنا التي ننسبهاالى الاسلام وليست منه في شيء، إذ لم يؤت عليها بدليل من كتاب أو ستة ، بل هي من نحت من كتبوها بعد أن نظروا في ظاهر الأحداث والتغيرات التي طرأت على الدولة الاسلامية في عصورها الأولى ، فبرروها وألبسوها ثياباً شفافة ، لم تستر ما بها من عورات عن عيون المبصرين .

فهذه الآراء السياسية التي عرضنا بعضها آنفاً تعني في بساطة أن أية مجموعة من المسلمين من خمسة أو ثلاثة بل واحد أيضاً يجوز له أن يحدد قيادة الأمة بمبايعته لهذا أو ذاك، وتصير بيعته هذه ملزمة لا يمكن نقضها، فمستقبل الأمة يجدده شخص واحد أو بضعة أشخاص . وتجوز البيعة أيضاً بالعهد تبريراً لحكم بني أمية وبني العباس ، لأنها إن كانت لا تجوز بهذا الطريق كانت نظم هذه الدول باطلة ، والقاعدة تنسحب أيضاً على النظم المشابهة في

Books.Rafed.net

الوقت الراهن من مشيخات ومملكـات . ويجـوز لواحـد أن يحـدد مستقبل الأمة كلها لقرون طويلة اذا ولى من بعده بالعهد أكثر من واحد على التوالي ، ولا حد ولا عد ، لأن بني أميـة وبـني العبـاس فعلوا ذلك ولم يعترض عليهم أحد . ولا يهم رضا الناس ولا عقل الأمة ووجدانها وإرادتها ، لأن ذلك لم يلزم لإمضاء بيعة أبي بكر وعمر (رض) .

ويجوز التأمير بالسيف ـ أو بالدبابة والصاروخ والعسـكر بعـد تقدم التكنولوجيا الحربية ـ ومـن ثـم فالانقلابـات العسـكرية مـن صميم الإسـلام أسـوة بمـا فعـل معاويـة . وطوبـى للمسـلمين لأن إسلام المشايخ يأمرهم بالسـمع والطاعـة للفـاجر وشـارب الخمـر والفاسق والسارق والزاني ، إذا تأمر عليهم بأي طريـق فهـو أمـير المؤمنين ، فمن إذن أمير الفاسقين والمجرمين ؟

أما الشعب والأمة والجمهور فـلا دخـل لـه في هـذه الأمـور ، وحـرام عليـه أن يتكلـم في السياسـة ، إذ لا يلزمـه علـى شـريعة مشايخنا أن يعرف قيادتـه ولا إمامـه بعينـه وشـخصه واسمـه ، لأن

Books.Rafed.net

هذا حق أهل الإختيار ، أو الحل والعقد ، وهو اصطلاح لم يـؤت به من كتاب أو سنة ، واختلفوا هم أنفسهم في تحديده حتى جعـل ابن خلدون بني أمية أهل الحل والعقد . (١)

وأهل الحل والعقد يختارهم وينتقيهم الخليفة على عينه ، ثم هم بدورهم يختارونه ، لأن الخلافة أصلاً شيء غير مهـم ، وهـي مـن المصالح العامة المفوضة الى نظـر الخلـق ، ولم تكـن مهمـة في عهـد النبى صلى ا لله عليه وسلم . (٢)

ولست أدرى لماذا لم يؤسس مشايخنا نظرية الاسلام السياسـية على أساس يتفـق وعقـل الإنسـان ، وفي ضـوء الأدلـة والنصـوص المتوفرة ، وهي كثيرة ، إن كنا نعتقد بأن نظرية الإسلام السياسـية ـ والقيادة من موضوعاتها ـ مسألة اجتهادية متروكة لنظر الخلق ؟

خذ لذلك مثلا لعن ا لله ورسوله لمـن قـام بـانقلاب عسـكري وبالتالي تحريم هذا الأسلوب في تحديد قيادة الأمة ، ما رواه العـالم

---

(١) المقدمة : ص ٢٠٦ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

Books.Rafed.net

السني الجليل السيد محمدبن عقيل العلوي إذقال (جاء في الصحيح عن رسول ا لله أنه قال : ستة لعنتهم ولعنهم ا لله وكل نبي مجاب: الزائد في كتاب ا لله ، والمكذب بقدر ا لله، والمتسلط بالجبروت فيعزمن أذل ا لله ويذل من أعز ا لله، والمستحل لحرمة ا لله، والمستحل من عترتي ما حرم ا لله ، والتارك لسنتي . أخرجه الترمذي عن عائشة وابن عساكر عن ابن عمر) [1]

ولماذا نستسيغ الكم الهائل من الأحاديث التي روتها الكتب الستة وغير الستة في تحريم الثورة على الحاكم وإن كان فاسقاً فاجراً ، وتلقين الناس السمع والطاعة للنظم والحكومات وإن لم يستنوا بسنة الرسول ويلتزموا بأحكام الشرع ، ونحض المسلم على أن لا يخوض في الفتن ـ أي الخلافات السياسية ـ ولو بأن يلجأ الى رؤوس الجبال أو يعض على جذع شجرة ، وعليه الصبر كي لا يموت ميتة الجاهلية ، الى غير ذلك مما هو مروي في أبواب الفتن ، والإمارة ، والأمر بلزوم الجماعة ، وغيرها من الأبواب ، في الصحاح والمسانيد... وهو ما جعل المسلمين أرانب مستأنسة.

---

(١) النصائح الكافية ، ص ٢٩ الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ بدون مكان .

Books.Rafed.net

لا والذي نفسي بيده أنا لا أنكر الحديث فهو الأساس الثاني للتشريع بعد كتاب الله ، لكني أفرق بين حديث رسول الله وبين كتب ومجموعات الحديث ، لأن هذه المجموعات لم تصنف وترتب إلا في أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث الهجري بعد انقلاب الخلافة ، وسيطرة من لم يكن له حق في السيطرة ، وبعد تغير الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية . ولا أرى ضرورة لتقديس الأشخاص ، لأن التاريخ عندنا قد امتزج بالحديث ، وكتّاب التاريخ في أغلبهم محدثون ، وهم ـ أي علماء الحديث ـ حين وضعوا كتبهم إنما وضعوها كل وفق رأيه الشخصي ، ومعتقداته الذاتية التي لا يلزم المؤمن اتباعها . فهم كأهل التاريخ لم يسمحوا لنا بقراءة ما خالف رأيهم . ومن أجل معرفة رأيهم لا ينبغي إغفال العناصر المؤثرة في تشكيل المناخ الثقافي لكل عالم منهم على حدة ، في ضوء دراسة طبيعة النظم التي عاشوا تحتها ، وعلاقتهم بحكومات عصرهم ، ووضعهم الإجتماعي والإقتصادي ، وموقف الأنظمة التي عاشوا في ظلها

Books.Rafed.net

من أهل الحق من المعارضين ، ومن العلماء الصادقين ... الى آخر ذلك من العوامل التي لا بد من أخذها في الإعتبار عند تقييم العمل العلمي والعلماء ، لأن من حقنا أن نتساءل لماذا لم يرو هذا المؤلف أو ذاك شيئاً ضد الحكومة التي كانت عليه ؟ ولماذا روى من الأحاديث ما يدعم سلطانها ، ويثبط الناس عن الثورة على مفاسدها ؟

إن ا لله عزوجل أنزل هذا الدين ليظهره على الدين كله كما هو منصوص في الكتاب ، ولئن كان الجانب العقائدي والأخلاقي محفوظاً مؤهلاً لأن يظهر على كل الأديان إن شاء ا لله ، إلا أن الجانب السياسي بالطريقة المدونة عندنا والتي رأينا بعضها ـ لا يبشر بظهور هذا الدين ولو حتى على أديان حي من أحياء مدينة من مدن المسلمين ، وعلينا أن نعيد النظر في تراثنا السياسي ونزيح الغبار عن نظرية الإسلام السياسية الحقيقية ، ونتخذ موقفاً محدداً من قضايا علم السياسة ، ونقدمه للناس بطريقة مقنعة ، تجعل هذا الجانب من ديننا غالباً ظاهراً كالشمس . إن العالم لن يقبل حقية

Books.Rafed.net

ديننا بمجرد قولنا أنه حق ، بـل سـينظر ويعقـل ـ وهـو في القـرن العشرين ـ ويقارن ثم يتخذ موقفاً ويصدر قراراً .

والذيـن كتبـوا في موضوعنـا مـن المحدثـين غالبـاً مـا اعتـبروا الشورى قاعدة انطلقوا منها في تصوير نظام الحكـم في الاسـلام ، لكنهم تغافلوا عن شكل الشورى كمـا طبقـة الأوائـل ومـالوا الى الشكل الغربي الحديث المسمى بالديمقراطية ، مع أن الشورى كما مارسها الأوائل ما كانت غير استشارة نخبة النخبة لا كـل النخبـة والصفوة ، ولا كل المسلمين [1] .

وإن كان من فصلوا الدين عن السياسة أو جعلوا نظام الحكـم في الاسـلام مسـألة اجتهاديـة متروكـة لاسـتصواب النـاس علـى اختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، مثل الأستاذ مصطفى عبدالرزاق في كتابـه الاسـلام وأصـول الحكـم ، قـد انتهـوا الى تفضيـل النظـام الديمقراطى على اختلاف في الدرجـات ، فـان الذيـن دافعـوا عـن

---

[1] لابد أن يكون المقصود بالنخبة والصفـوة عنـد المؤلـف مجموعـة الذيـن أجـادوا التخطيط واستغلال ظرف وفاة النبي صلى الله عليه وآله . أما النخبة والصفـوة بمفهوم الإسلام فلها معني آخر (الناشر) .

Books.Rafed.net

النظرية الإسلامية و لم يفرقوا بين الدين والسياسة، انتهوا أيضاً الى نفس النتيجة على اختلاف في الألوان.

والسبب في وحدة النتائج رغم اختلاف المشارب ـ كما يتهيأ لي ـ يرجع الى طبيعة المذهب نفسه ، إذ يخلو كما ذكرت من شيء محدد نمسكه في يدنا .

يقول أحد أعضاء الفريق الثاني :

(فالحكومات التي تجمع في حصيلتها من دلائل الرضا أكثر من إمارات السخط، هي خير الحكومات وأرشدها وأصلحها)[١]

(إن الحاكم أياً كان من العدل والإستقامة وسلامة القصد ، لن يبلغ من المحكومين في ميزان حكمه ، وأحسن من هذا أن ترجح كفة الرضا على كفة السخط ، أما أن يحوز رضا الناس كلهم ، فذلك ما لا ينال أبداً) [٢]

---

(١) الامامة والسياسة ، عبدالكريم الخطيب ، ص ١٩٤ ، الطبعة الثانية ، لبنان ١٩٧٥ وانظر الخلافة والملك للمودودي .

(٢) نفس المصدر : ص ١٩٧

Books.Rafed.net

ولأن المسائل السياسية عندنا مبهمة غير واضحة تقوَّل الأقدمون فيها برأيهم ، كما تقوَّل المحدثون .

ومن هذا نفهم أن المسلمين في حاجة الى إعادة صياغة فكرهم السياسي أو على الأقل تحديد الأمور الأساسية فيه .

يقول الدكتور طه حسين وهو يناقش الأزمة الدستورية التي واجهتها الدولة الاسلامية الوليدة فسبب لها ما وقع من انقلاب :

(كان المسلمون في حاجة الى أن ينشئوا لأنفسهم في حدود القرآن والسنة دستوراً مكتوباً يبين الحدود والإعلام ، يعصمهم من الفرقة والإختلاف ... فلم يتح للشيخين وأصحابهما من الوقت ولامن الفراغ والدعة ولا من التطور والإتصال بأسباب الحضارة ما كان من شأنه أن يمكنهم من وضع هذا النظام ، إنما السبيل على الذين جاؤوا بعدهم فأتيحت لهم السعة والدعة والفراغ ، ولم يفكروا مع ذلك في أن يضعوا نظاماً لتداول الحكم ولا في أن يضعوا نظاماً يكفل رعاية العدل السياسي والإجتماعي ، وإنما أهملوا ذلك إهمالاً وآثروا أنفسهم بالحكم والغلب والاستعلاء) [١]

---

[١] الفتنة الكبرى : ص ٤١ ـ ٤٢ .

Books.Rafed.net

لكـن أجيالنـا تنكـرت لهـذه النـداءات الـتي أطلقهـا كثـير مـن الباحثين ، وبدلاً من أن نعكف على دراسة ما نحن به حقاً ، ومـا تحتاجه مجتمعاتنـا، فـإذا بنـا نضـع أصابعنـا في آذاننـا ، ونستغشـي أثوابنا ، ونسير في الاتجاه المعاكس ، تماماً لنقـدس أوثانـاً وأصنامـاً نحتها لنـا قدمـاء المشـايخ علـى هيئـة اصطلاحـات ألزمـوا أعناقنـا بالخضوع لها ، فصرنا نسجد لها ونطالب المسلمين غيرنا بالسجود لها ، وإلا فهم رَفَضة مارقون عن الدين .

ومن الأصنام في عصرنا ما نحت بتوجيه أجنبي خفـي أو جلـي في شكل كتب أو أشـخاص أضفينـا عليهـم القداسـة واعتبرنـا مـا يقولونه وحياً منزلاً .

ولا أرى ـ إن كان لي حق في الرؤية ـ علاجاً لمـا نحـن فيـه إلا إتاحة جو عام من التفكير بحرية ، والنقاش العلمي بحرية ، وطـرح المعطيات والمقدمات باستقلالية ، ثم بعد ذلك استخلاص النتـائج دون قيود ، معنا كانت هذه النتائج أم علينا .

نحن في حاجة إذن الى ثورة في أسلوب التفكير قبل ثورة الفكر وثورة التنفيذ ، لأننا لا نعرف حتى الآن كيف نتعامل مـع الفكـر

Books.Rafed.net

وكيف نفكر ، وما ينبغي أن نكون عليه من فكر ، وفي غياب كل هذا نريد أن نتصرف فإذا بنا نتصرف كرهبان الكنيسة في عصورها الوسطى ، ولنا ألف جاليليو ، ونتغطرس كقابيل ونقتل كل يوم ألف هابيل ، فيلصق الجهلاء والبسطاء أفعالنا بالاسلام نفسه ، ونشاركهم في تشويه هذا الدين الأبيض الجميل .

إن الإنقسام الذي نراه بيننا ، والإنفصام الذي نعايشه بين السلطة والشعب وبين القيادة والقاعدة ، وإن كان واقعنا الناطق وحاضرنا التعيس ، إلا أنه عتيق له جذور تصل الى ذلك العهد البعيد قبل أربعة عشر قرناً ، حين اختلف سلفنا الصالح واقتتلوا على القيادة ، فنخر السوس في الجذور ، وتركناه ينخر، وقتلنا الأطباء ، وقاطعنا كل دواء !

Books.Rafed.net

انقسام الأمة والقيادة.....١٥٣

انقسام الأمة والقيادة

لا حظنا في الفصول السالفة كيف تحددت قيادة الأمة بعد وفاة مؤسس الدولة خمس مرات ، يمثل كل منها نموذجاً مختلفاً عن غيره ، ولا حظنا كذلك ما أملته الطبيعية البشرية على كبراء الجيل الأول فاختلفوا واقتتلوا ، إذ تصرفوا في الأمر بعد إهمال الضوابط والنصوص ــ كما يتصرف البشر ــ فانتهى الأمر الى استئثار قريش بصالحها وطالحها على قيادة الأمة ، وراحت الغلطة الصغيرة الأولى تكبر وتكبر ، الى أن انتهت الدولة في مدة قصيرة .

يقول الدكتور طه حسين : ذلك أن قريشاً فهمت قول أبي بكر (في السقيفة) على غير ما أراده هو ، وعلى غير ما فهمه

Books.Rafed.net

أصحابه في ذلك الوقت ، فاستيقنت أن الإمامة حق لها لا ينبغي أن يعدوها الى غيرها ، وأنه حق لها لمكانتها من النبي . وقد كانت قريش في هذا الفهم خاطئة متكلفة ما في ذلك شك . ولو قد صح فهمها وتأويلها لظهرت عليها حجة بني هاشم ، ولكان بنو هاشم أحق المسلمين بالإمامة ما استطاعوا أن ينهضوا بأعبائها ...

ومهما يكن من شيء فقد نشأت هذه الارستقراطية القرشية فجاءة على غير حساب من الناس ، وكانت أرستقراطية قد غلط بها . أراد أبو بكر أن تكون الإمامة في المهاجرين ما وجد بينهم الكفء القوي على النهوض بها ، فحولت قريش ذلك فيما بعد الى منافعها وعصبيتها وخرجت بذلك عن أصل خطير من أصول الإسلام) [1]

وليس في اعترافنا بغلبة النفس البشرية وطباعها وميولها على رجال الجيل الأول ونسائه ، واقترافهم أخطاء سياسية لأسباب

---

[1] الفتنة الكبرى : ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ .

Books.Rafed.net

بشرية ، ما ينقص من قدرهم [١] أو يخرجنا من الملـة ، لأن أمـور الحكم إنما تستقيم حين يكـون التعـاون والتضـامن بـين الحـاكمين والمحكومين في الأصول التي يقوم عليها النظـام ، فليـس يكفـي أن يكـون الحـاكم يقـظ الضمـير مؤثـراً للعـدل مصطنعـاً للمعـروف حريصاً علي رضـا ا لله ، كافيـاً بعـد ذلـك لمشـكلات السياسـة ، خراجاً منها إذا أدلهمت ، وإنما يجـب أن يكـون لرعيتـه حـظ مـن الضمـير الحـي اليقـظ ، ومـن حـب العـدل ، وايثـار المعـروف ، والحرص على رضا ا لله .

---

[١] هذه المقولة من المؤلف والتي أكدها في الصفحات التالية برأي المـودودي ذات وجهين ، أحدهما صحيح فقـط ، وهـو أنـه توجـد أخطـاء طبيعيـة مـن كبـار الشخصيات غير المعصومين (العظماء بتعبير المؤلف والمودودي) وهي لا تضر بقدرهم ومقامهم ، وهي المعـبر عنهـا عنـد الفقهـاء بأنهـا لا تنـافي العدالـة ولا تسبب خروج صاحبها الى الفسق أو الكفر . والوجه الآخـر أن نقـول إن كـل ما يرتكبه الشخص الكبير (العظيم حسب تعبير المؤلف) بغلبة النفس البشـرية لا ينقص من قدره حتى لو كان مخالفة للنبي صلى ا لله عليه وآله ، فهـذا مـا لا يوافق عليه أحد من المسلمين . (الناشر)

Books.Rafed.net

وهذه هي المشكلة الأولى التي واجهت نظـام الحكـم الجديـد ، فلم يكن العرب كلهم أصحاب رسـول الله ، بـل لم تكـن كـثرة العرب قد صاحبت النبي واتصلت به ، وإنما كان أصحاب رسول الله كالشعرة البيضاء في الثور الأسود ، أو كالشـعرة السـوداء في الثور الأبيض ، ولم يكن إيمـان العـرب بـالدين الجديـد مطابقـاً أو مقارباً لإيمان هذه الطبقة من أصحاب النبي ، وإنما كان من العرب من حَسُن إيمانه ، ومنهم مـن أسـلم ولم يؤمـن ... بـل كـان مـن العرب من جرت كلمة الإسلام على لسانه ولكنه احتفظ بجاهليته كاملة في قلبه ونفسـه وضميره ... فلـم يكـن هنـاك تـوازن بـين الحاكم والمحكوم ....

وأخرى لاينبغي أن ننساها ولا ينبغي أن يضيق بها المتحرجون الذين يغالون في حسـن الظـن بالإنسـان ، وهـي أن هـذا الضمـير الديني الحي اليقظ قد يتعرض للفتنـة والمحنـة ، وقـد يلقـى أخطـاراً كثيرة من الأحداث والخطول ، فما أكثر ما يخلص الإنسان نفسـه وقلبه وضميره للحق والخير والعدل والإحسان ، ثم تلم به أسباب

Books.Rafed.net

الفتنة ، وتلح عليه وتسرف في الإلحاح حتي تضطره الى أن يتـأول في بعض الأمر ، ثم ما يزال ينتقل من تأول الى تأول ، ومن تعلـل الى تعلل ، ومن تحلل الى تحلل ، حتي ينظر ذات يوم فإذا بينه وبين الإخلاص الأول أمد بعيد ...

فليس مـن الغريـب في شـيء أن يتعـرض كثـير مـن الصـالحين ومن أصحـاب النبي أنفسـهم لأسباب الفـتن ودواعـي الغـرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحـداث والخطـوب مـا يبـاعد بينهـم وبـين عهدهم الأول حين كان الإسـلام غضـاً ، وحـين كـانوا يتصلـون مصبحين وممسين) [1]

هذا رأي صحيح ، ولا أرانـي متفقـاً مـع الأسـتاذ عبدالكريـم الخطيب فيمـا ذهـب إليـه مـن أن الصحابـة خـاضوا المعـارك الـتي خاضوها فيما بينهم وهم على غير يقين مـن صحـة تصرفـاتهم أو خطئها ، واستشهاده بموقف سعد بن أبي وقاص مـن علـي (ع) وبموقف الزبير أيضاً حين اعتزل قتال الإمام عليه السلام .

---

(١) الفتنة الكبرى : ص ٣١ ، ٣٩ ، ٤٠ .

Books.Rafed.net

بل إني أختلف معه بشدة حين قول (هذه المعارك الـتي دارت بين المسلمين في موقعة الجمل ، وفي صفين ، وفي الحروب الكثـيرة التي جاءت بعد ذلك مع الخوارج والأمويين والعلويين والعباسـيين هذه المعارك كلها كانت باسم الدين ولحسـاب الديـن) [١] فهـذا رأي لا يستبين به الحق من الباطل .

ونحن حـين نـرى في أفعـال هـؤلاء العظمـاء رأيـاً لا ينبغـي أن نخرج من تحليل مواقفهم وآرائهم كما هـي مدونـة في التـاريخ الى أكثر من ذلك ، لا لأنهم في منزلة بين البشر والملائكـة ، بـل لأن الإسلام منع سباب المسلم عامة .

ولأصحابنا أسوق رأي الأستاذ المودودي رحمه الله في هـذا إذ يقول :

(وهناك فرق أساسي بين نظرتي ونظرة الآخرين في هذا الأمر كثيراً ما يسيئون بسببه فهم موقفي ، فالناس يفهمون أن العظيم لا يخطيء أبداً ، وأن من يخطيء فليس عظيماً ، ومن ثـم لا يريـدون

---

[١] الإمامة والخلافة : ص ١٣٢ ـ ١٣٣

Books.Rafed.net

أن يقال عن أي فعل من فعال العظماء أنه خطأ ، الى جانب أنهم يظنون أن من يقول عن فعل من فعال العظماء أنه خطأ لا يعتبرهم عظماء . أما رأيي ونظرتي فعلي عكس هذا ، فعندي أن أي فعل صادر عن عظيم ـ غير الأنبياء ـ يمكن أن يكون غلطاً ، ومع ذلك يظل العظيم عظيماً ، ولا أقول بخطأ فعل من فعال عظيم من العظماء إلا عند ما يثبت لدي بالوسائل والطرق الموثوق بها أنه خطأ ، وعند ما لا يمكن تأويل فعله بأي دليل معقول . غير أني حين أرى ـ مع هذا الشرط ـ أن فعلاً من فعاله غلط ، أقول إنه غلط ، وأقف في نقدي عند هذا الحد .

وفي رأيي أن العظيم لا تتأثر عظمته بهذا الخطأ ، ولا ينقص احترامه أو يقل ، فإني لا أري ضرورة علي الإطلاق لإنكار الأخطاء الواضحة التي أخطأها من اعتبره عظيماً فأداريها وأسويها وأخفيها ، أو أثبت صحتها بالتماس تآويل لها غير معقولة وغير منطقية ، لأن النتيجة المحتومة للقول عن الخطأ أنه صواب هي انقلاب معيارنا وتبديل مقياسنا للصواب والخطأ ، واجتماع كافة

Books.Rafed.net

الأخطاء التي أخطأها مختلف العظماء فـرداً فـرداً وتراكمهـا فينـا ، فإخفاء ما هو ظاهر وساطع سطوع الشمس ـ في رأيي ـ لا يكون فيه نجاح وفلاح بل انحراف وزلل آخر) [١]

ولغير أصحابنا أسوق رأي الدكتور طه حسن إذ يقول :

(أما نحن فلسنا نعاصرهم ولا نشاركهم فيما شجر بينهم مـن الخلاف ، وليس من المعقول لذلك أن نقحـم عواطفنـا في أمرهـم إقحاماً ، وإنما سبيلنا أن ننظر في أعمالهم وأقوالهم من حيث صلتها بحياة الناس وأحداث التاريخ ، وأن نخطّيء من نخطيء ، ونصـوِّب من نصوب منهم من هذه الجهة وحدها ، دون أن نقضـي في أمـر دينهم بشيء ، فإن الدين لله ، ودون أن نستبيح لأنفسنا أن نقول كما كـان يقـول أنصـارهم وخصومهـم هـؤلاء مؤمنـون وهـؤلاء كافرون ، وهؤلاء في منزلة بين بين ، وهؤلاء في الجنة وهـؤلاء في النار ، ذلك شيء لا نخوض فيه ، وليس لنا أن نخوض فيـه ، وإنمـا أمره الى الله وحده ، فأما الذي الينـا فهـو أن نتبـين مـن أعمـالهم

---

(١) الخلافة والملك : ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ، دار القلم ، الكويت ١٩٧٨

Books.Rafed.net

وأقوالهم ما يلائم الحق والعدل والصواب وما لا يلائمه ، وهذا في نفسه كثير ، ولكن لا بد مما ليس منه بد) [1]

فالوقائع التي قرأناها على الصفحات الماضية لا يصح أن نسميها (فتنة) لكي نلقي بالتبعة على من أراد للأمة هذه الفتنة وهو ا لله سبحانه وتعالى ، لنبريء ذمة أشخاص نعزهم ونحبهم .

كما أنها أيضاً لم تكن ـ كما قال الأستاذ الخطيب وكما رأيت ـ لله وفي ا لله ، ولا فعلوها وهم لا يدرون من أمر أنفسهم شيئا ، ولا هي كما قال كثير في القديم والحديث ـ اجتهاد .

فذلك كله مراوغة ومدافعة ، وإنما هي أخطاء وانحرافات ارتكبوها بطبيعتهم البشرية ، التي ألهمها خالقها فجورها وتقواها.

هذه الأخطاء حين تراكمت أدت الى انقسام مزدوج في بناء الدولة وكيانها ، لم يلتئم منذ ذلك اليوم الى هذا اليوم الذي نحن فيه . فهو قد وقع في القيادة كما قد وقع في النسيج الإجتماعي المكون من أفراد الأمة الذين يشكلون معاً وجنباً الى جنب خير

---

(١) الفتنة الكبرى : ص ٤١ .

Books.Rafed.net

أمة وخير شعب . فأما الإنقسام الذي وقع في القيادة فهو الأساس والأخطر ، لأن انقسام الأمة والناس لم يكن في الحقيقة إلا نتيجة له . ولأن الإسلام دين شامل كامل كان لابد من أن تكون القيادة التي تنفذه قيادة شمولية تستوعب جميع جوانب هذه النظرية الواسعة ، فتقود الحرب ، وتفقه الدين ، وتدير الدولة ، وتخط السياسة ، وتعلم أسرار الدين ، وتفهم الشريعة ، وتشبع الأرواح، وتحق الحق ، ولا تحابي قريباً أو نسيباً ، وتحفظ أموال الناس ، وتسوي بين أفراد المجتمع .

قيادة تكون ـ باختصار ـ أعلم الناس بالنظرية التي تقوم عليها الدولة ، فتطابق شموليتها شمولية هذا الدين .

وكان مؤسس الدولة المحاط بوحي الله وعنايته ورعايته خير نموذج للقيادة المطلوبة ، بحكم كونه نبي الله المرسل لتطبيق هذه النظرية . فلما انقطع الوحي بوفاة النبي ، كان لابد من أن تحل محل المؤسس قيادة بهذه المواصفات تضمن سير الدولة الوليدة في الخط السماوي الذي وضع لها .

Books.Rafed.net

هذه القيادة الثانية بعد المؤسس كـان لابـد مـن كونهـا أقـرب النماذج شبهاً برسول ا لله.، وأفهم الموجودين للنظرية ، وأدنى من المؤسس من غيرها . قيادة تكون قد توفـر لهـا مـن العلـم والمعرفـة الغزيرة ما لم يتوفر للآخرين ، فتقيم الإسلام كما هو بغـير محاباـاة لقبيلة ، ولا مناصرة لعصبية . لكن ما حدث كان خـلاف هـذا ، نعم تولاها فاضل لا شك في فضله ، لكنها كانت تحتاج لمـن هـو أفضـل ولا شـك في أفضليتـه ، لأن الـدول المبنيـة علـى نظريـات فكرية ثورية تحتاج الى الإستمرار فـترة علـى نفـس خـط المؤسـس حتى تستقر لها الأمور .

وقد رأينا كيف تم تعيين قيادة الدولة بعد المؤسس مرات وليس مرة ، وكيف لعبت المصالح الشخصية ، والعصبيـة القبليـة دورهـا في كل هذه الأحداث ، فأخذ الإنحراف الأول البسيط الذي كـان كالشعرة ينتقل بالدولة والناس خطوة خطوة حتى انتهى الأمر الى ما رأينا ... وإذا بخير أمة أخرجت للناس يقودها بعد انتهـاء فـترة الخلفاء الأربعة ومنذ بدايـة حكـم بـني أميـة أطـول النـاس عـداوة

Books.Rafed.net

للإسلام ، وآخرهم دخولاً فيه ، وأقلهم معرفة برسول الله ، وأكثرهم تطاولاً عليه ... من الملاعين وأبناء الملاعين والمطاريد ، وأبناء البغايا والعاهرات .

ولأن هذه الأشكال لم تكن صالحة للقيادة جامعة لصفاتها انقسمت القيادة الى ثلاثة إتجاهات متفرقة كان من المفروض أن تجتمع كلها في شخص واحد : الجانب القانوني المتعلق بالشريعة وأحكامها ، والجانب الروحي ، والجانب السياسي .

وبدلاً من أن تكون القيادة عالمة بالشريعة ، قائدة في الروحانيات ، مدبرة للسياسة ، إذا بهذه الجوانب تنفصل عن بعضها ، ويستقل بكل جانب واتجاه منها قيادة لا تجمع الثلاثة في آن واحد. فاستقل بالقيادة القانونية من عرفوا بعد ذلك بالفقهاء، ثم انحصر مفهوم الشرع على يديهم في المعنى الفقهي الإصطلاحي الضيق ، لأن هؤلاء طلقوا السياسة واكتفوا بجانب أو اثنين من جوانب القيادة ، وساحوا في البلدان يعرفون الناس في ظل الأنظمة المنحرفة بأمور الدين ، التي انتهج كل منهم في شرحها وجهة شخصية بناء على ما فهم من الدين .

Books.Rafed.net

نعم أدى هؤلاء الفقهاء خدمات علمية بارزة ، لكن تفرق علمهم في الناس ـ مع كونهم ليسوا أعلم من في الأمة ـ أدى الى اختلاف الناس باختلاف آراء الفقهاء ، وشهد تاريخ الأمة نشأة أفقهة كثيرة ، تبعاً لكل من خاض في هذا المضمار ، ثم انقرض أكثرها لظروف سياسية في أغلبها، وبقي منها الأربعة التي نعرفها.

وأما الجانب الروحي فلم يجد من هؤلاء حظاً من الإهتمام ، فاستقل به من اهتموا بشؤونه ، وغلبتهم همومه ، فانقطعوا عن الدنيا ، وطلقوا السياسة ، واستغرقوا في الروحانية استغراقاً ، وعرفوا اصطلاحاً فيما بعد باسم الصوفية ، ومنهم من تأثر بالفلسفة اليونانية ، ومنهم من اقتبس من النصرانية ، ومنهم من اتبع الشريعة ، ومنهم من شطح .

نعم جرت محاولات لربط الطريقة بالشريعة كما فعل أبو حامد الغزالي ، لكن محاولته اقتصرت على الجمع بين الجانب القانوني والجانب الروحي ، وبقيت بعيدة عن الجانب السياسي ، أوقد أهملته إهمالاً .

Books.Rafed.net

هذا وذاك ـ أعني الجانب القانوني والجانب الروحي ـ يمكن أن تطلق عليهما مجازاً القيادة الدينية ، مع أنها تسمية غير دقيقة ، لكون السياسة ديناً أو جزءاً من الدين لا ينفك .

وبقي الثالث وهو جانب الحكم والسياسة وهو ما انفرد به من لا علم لهم بالقانون والشرع ، ولا بالروح وعوالمها وأحوالها ومقاماتها . وأخذ بزمام الأمور في هذا الميدان أسوأ الناس في الأغلب من تاريخ الأمة .

صحيح قذفت الأقدار بنفر معدودين من الصالحين الى كراسي الحكم ، لكنهم لم يحاولوا الجمع بين الجوانب المذكورة أو رد القيادة الى ما ينبغي أن تكون عليه ، فكانوا كضوء خاطف وسط الظلام ، ظهر ثم انقضى سريعاً ، ربما قيل أن يدرك أغلب الناس وجوده .

ساد الأمة إذن إنقسام بين القيادة الدينية بجانبيها القانوني والروحي ، وبين القيادة السياسية ، وانفصلت هذه عن تلك ، وتنفر هؤلاء من أولئك ، وكثيراً ما تحول هذا الإنشقاق الى صراع وعداوة .

Books.Rafed.net

(ظل النفور والتصادم ـ أو على الأقل عدم التعـاون ـ السـمة الغالبة على ما بين القيادتين من علاقة ، فالقيادة السياسية قليلاً ما كانت تساعد القيادة الدينيـة (ظـل النفـور والتصـادم ـ أو علـى الأقل عدم التعاون ـ السمة الغالبة على ما بين القيادتين من علاقة، فالقيادة السياسية قليلا ما كانت تساعد القيـادة الدينيـة في القيـام بواجبها ، كما أن القيـادة السياسـية لم تقبـل إلا أقـل القليـل مـن العون الذي كانت القيادة الدينية تقدمه لها ، لأن الثمن الذي كان عليها أن تدفعه للقيادة السياسـية نظـير مسـاعدتها لهـا ، مـا كـان إيمانها ولا ضميرها يرضى بدفعه . وكذلـك كـان النـاس أنفسـهم قليلاً ما يثقـون فيمـن اقـترب ـ مـن أفـراد القيـادة الدينيـة ـ مـن السلاطين أو نال منهم منصباً أو منحنة أو عطاء ، فأضحى معيـار أهلية القيادةالدينية وصلاحيتها ـ في نظرهم ـ انقطاعها واستغناؤها عن الحكام ، وصمودها أمام غضبهم وقهرهم وبأسهم ، فإن شـذ أحد أفرادها عن هذا المعيار نظر الناس اليه نظرات ثاقبة شـديدة ، وامتنعـوا عـن الإعـتراف بعظمتـه ، اللهـم إلا إذا رفـض المسـاومة والمهادنة على أمر الدين رغم قربه من الحاكم .

Books.Rafed.net

بل إن نفس من كانوا يبيعون أنفسهم للقيادة السياسية ـ فضلاً عن عامة المسلمين ـ ما كانوا ليقبلوا إماماً وزعيماً دينياً يبيع نفسه للحاكم مثلهم ، أو يحرف أحكام الدين تحت ضغط القوة والجبر. هكذا انفصل طريق القيادة الدينية عن القيادة السياسية منذ منتصف القرن الأول الهجري . (١)

هذا الإنقسام لم يظهر برأسه متأخراً كما يظن البعض بل في عهد الصحابة وأمام أعينهم ، حتى وجد في الدولة الإسلامية ثلاثة خلفاء مبايعين في آن واحد (فكان مروان بن الحكم خليفة مبايعاً في الشام ومصر ، وعبدا لله بن الزبير خليفة مبايعاً بالحجاز والبصرة ، والمختار الثقفي خليفة مبايعاً في الكوفة) (٢)

فما إن استقر الأمر لبني أمية حتى راح يتداول الحكم في الأمة من لا دين لهم ولا خلق ، وامتدت سلسلتهم منذ ذلك الوقت والى يومنا هذا . فلئن أدت مشكلة القيادة الى أن يوجد في جيل

---

(١) الخلافة والملك ، أبو الأعلى المودودي : ص ١٣٧

(٢) الفخري لابن طباطبا : ص ٨٦ .

Books.Rafed.net

الصحابة وعلى رؤوسهم وفوق كرسي دولتهم من استحل حرمات ا لله والناس فأحرق الكعبة وضربها بالمجانيق واستباح مدينة رسول ا لله لجنده فاغتصبوا نساءها من صحابيات وتابعيات حتى أن (الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لعلها قد افتضت في وقعة الحرة) [١] (وحبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زواج) [٢] فإن نفس المشكلة التي لم تحل بعد قد سلطت على رقاب المسلمين في مختلف العصور وخاصة في عصرنا الحديث من ارتكبوا ويرتكبون ما هو أكثر من ذلك ، لأن المشكلة بعينها لم تزل . وما النظم الحالية في بلاد المسلمين إلا إمتداد لذلك النظام القديم، مربوطة به بحبل وثيق طويل طوله أربعة عشر قرناً .

أما انقسام الأمة الذي جاء نتيجة انقسام القيادة ، فكان له صور وأشكال ، وظهر واضحاً في أكثر من مجال . ففي المجال

---

(١) نفس المصدر : ص ٨٤ .

(٢) الفتنة الكبرى : ص ٤١ .

Books.Rafed.net

الإجتماعي والإقتصادي اندثرت (المؤاخاة) التي سوى بها المؤسس تسوية تامة بين أفراد المجتمع ، ونشأت في مكانها طبقات غير متساوية هنا وهناك (فوجدت طبقة الارستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع ، ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون في الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، ووجدت بين هاتين الطبقتين المتباعدتين طبقة متوسطة هي طبقة العامة من العرب الذين كانوا يقيمون في الأمصار ، ويغيرون على العدو ، ويحمون الثغور ، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء ، وهذه الطبقة هي التي تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعاً وأحزاباً) [1]

وفي مجال الفكر والعقيدة انقسم المسلمون فرقاً وأحزاباً ، لأن التذبذب الذي عاشوه جعل أمور الفكر والإعتقاد موضع بحث ونقاش ، فنشأ لكل فريق من رجال الجيل الأول حماة ومعارضون

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير : ٣٧٢/٨ ، مطبعة السعادة مصر ، وانظر للتفصيل ص ٢١٩ - ٢٢١ .

Books.Rafed.net

ونشأت فرق أخرى أما كرد فعل لبقية الفرق ، وأمـا بوحـي مـن السلطة واشارة ، فإذا بالنسيج السوى يتمـزق قطعـة قطعـة ، واذا بالفكر مشتت ، والعقيدة مختلف في تفاصيل أمورهـا ومسـائلها ، وإذا بعامة الناس منفصلة عن صراعات الفكر ودوامـات الفـرق ، وازدادت الشقة بين الفرق وبعضها ، فغلا كل منها وتطـرف ... ولما رأى العامة ذلك انكب كل فرد على مصالحه وشأنه ، فأعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله مؤثراً السلامة ، تاركاً مساندة الحـق وهو يعرفه .

وأتصـور ـ إن كـان مـن حقـي أن أتصـور ـ أن السـبب في الإنحـراف الـذي اتسـع ثـم الإنقسـام الـذي وقـع هـو أن الدولـة الإسلامية ـ وهي دولة فكرية ـ تحتاج الى مرجـع يضـم في صـدره علمـاً يقينيـاً محـدداً ، ويعـرف تفـاصيل الشـرع ، وتتوافـر فيـه خصـائص العلمـاء والساسـة والزهـاد العبـاد ، فيكـون أقـرب الى الشخصية الكاملة ، شخصية المؤسس .

هذا المرجع تكون له هيمنة المشرف على شئون الدولة كـى لا يتلاعب بشرعها متلاعب ، أو يتأول قانونهـا متـأول ، أو يتحلـل

Books.Rafed.net

منه متحلل ، هو الفيصل في المنازعات إذا نشبت ، والقائل بكلمته إذا الأمور ادلهمت ، لما له من علم شامل واسع ، وعقل مدبر ، وروح شفافة ، ولكونه قد شرب مما لم يشرب منه غيره ، واختصه النبى المؤسس بما لم يطلع عليه غيره .

وقد وجد هذا المرجع فعلاً ، وبهذه المواصفات فعلاً ، فكان إماماً يسلم الكل بإماماته ، ويحتاجون الى رأيه ، ويلجأون اليه في المعضلات ، فقد حفظت لنا كتب التاريخ والحديث رأيهم فيه ، وتسليمهم بمنزلته ، حتى كان إذا وقع أحدهم في ورطة قال (معضلة ولا أبا حسن لها) .

لكنهم مع هذا، ورغم وجود المرجع بينهم ، واستشارتهم له ، لم يجعلوا لرأيه إلزاماً ، فكانوا يطلبون رأيه فيشير عليهم ويستحسنونه ، لكنهم بعد ذلك أحرار في أن يعملوا به أو لا يعملوا .

ومن هنا وقعت المخالفات لأنهم سلموا للإمام المرجع بمنزلته ، ولم يضعوا في يديه قوة التنفيذ والإلزام ، فصار رأيه بلا وزن في الدولة . هذه واحدة .

Books.Rafed.net

وأما الثانية فهي أن من وصلوا الى سلطة الدولة الوليدة ما كانوا يصلحون للمرجعية والإمامة وإن صلح بعضهم أو كلهم لمنصب رئاسة الدولة والحكومة ، فلما سارت الدولة برأي رئيس الحكومة أو الجهاز التنفيذي ، متحررة من سلطة المرجع ، كانت كدولة بلا إمام ومرشد ، فوقع ما وقع .

وأتصور أن هذا النظام لو أخذ به لرضيت الأطراف كلها ، ولسارت الدولة بيد من سارت ومن لا تنكر كفاءتهم ، ولكن في وجود مرجع امام يقول لرئيس الدولة : قف ، إذا رأى منه ما يخالف الشرع عمداً أو سهواً .

وإذا تذكرنا أن قواعد وضوابط الدولة ونظام الحكم وتفاصيل الأمور لم تكن تكتب آنذاك ، كان لابد من وجود من يعرفها ويعلمها علم اليقين ، ومن ثم يبدو النص عليه وتعيينه للدولة والأمة من قبل ا لله ورسوله أمراً طبيعياً ، لكونه الأعلم والأفهم والأشجع ، والأقرب الى المؤسس والألصق به .

وإذا عرفنا أن منفذ السياسة وبرامج الدولة، ومدير حكومتها، لا يشترط فيه أن يكون الاعلم وإن اشترط له العلم ، ولا يشترط

Books.Rafed.net

له ما هو مشترط في المرجع المرشد ، كان عدم تعيينه والنص عليه ثم ترك اختياره للأمة والناس بالشورى أمراً طبيعياً ، مادام هناك من يضمن سير الدولة على الطريق المحدد المرسوم ، وله سلطة إعطاء الضوء الأحمر والأخضر بما لديه من علم وفهم .

وقد لا يعجب كلامي هذا أهل التشيع أو بعضهم ، وقد يضيق به أهل التسنن أو جلهم ، لكن عليهم جميعاً ألا ينسوا أنه مجرد تصور فردي ، وقراءة ذاتية .

Books.Rafed.net

الرأي الآخر.....١٧٥

الـرأي الآخـر

رأينا فيما طوينا من صفحات هذا الكتاب كيف عينت القيادة وفق مبدأ الشورى ، وما تخلل هذا من ثغـرات دسـتورية ، ورأينـا كذلك النتائج التي أدت اليهـا المخالفـات والإنحرافـات ، وأهمهـا سوء صياغة الفكر السياسي الديني عندنا .

وكأني أرى رجلاً يشبح بيده في وجهي ويصـرح : كفـاك يـا عم ، لقد أسمعتنا ما نكره ، فماذا عن الطرف الآخر ؟

قبل أن آتيك بما عند الطرف الآخر ، آراني مضطراً لأن أقـف وقفة عند لفظ واحد مـن الألفـاظ الإصطلاحيـة الـتي يسـتخدمها هؤلاء ويثير حفائظنا كلما سمعناه أو قرأناه ، لأنه ارتبـط عندنـا ـ

Books.Rafed.net

كغيره من الإصطلاحات ـ بمعنى آخر ، فصارت أحرفه توحي لنا احساساً منفراً ، لأننا ـ كالعادة ـ لم نبحث عن مدلولاته في كتب القوم وتراثهم ، بل استسلمنا لصحف الدول والأنظمة العربية والعجمية العفنة ، أو كتابات أعداء الشيعة القدامى لكي نقيم عنهم رأياً ، فكنا كمن استفتى الرئيس الأمريكي في الشيوعية دون أن يلتمس هذه النظرية في كتبها الأصلية ، وكتب المعتدلين من مفكريها لا المتطرفين ، وهذا عندي ـ وعند كثير غيري ـ يخلو من النزاهة والإنصاف . أنا أتحدث عن (العصمة) فليس في مصطلحات القوم لفظ أكثر منه تنفيراً لأهل السنة .

لم يؤثر عن الصحابة الكلام في عصمة الأنبياء ، بل لا نجد لهذا المعنى ذكراً في حياة الرسول نفسه ، والشيعة أول من تكلم فيه ، ثم جاء علماء السنة فيما بعد فاضطروا للبحث فيه لرد مقولات الشيعة . فأما عصمة الأنبياء فالخلاف بين الطرفين ليس بواسع ، لأن السنة يسلمون بها للأنبياء على خلاف بينهم في أنها مطلقة أم في حدود الرسالة فقط ، وليس في هذا الكتاب مجال مناقشة

Books.Rafed.net

اختلافات أهل السنة في حدود عصمة الأنبياء . إنما الخلاف الأساسي في كون غير الأنبياء معصومين أم لا ، فأهل السنة لا يرون غير الأنبياء معصومين ، أما الشيعة فيؤمنون بعصمة اثني عشر إماماً فقط ، من بين جميع البشر يتصل تاريخهم ووجودهم الزمني منذ وفاة النبي عليه وآله السلام حتى سنة ٢٥٥ هـ حيث ولد الثاني عشر منهم وغاب فكان هو الإمام الحي الغائب .

لكن عصمة غير الأنبياء عند الشيعة ليست كعصمة الأنبياء اذ ليس ثمة وحي ولا نبوة ، إنما العصمة في هذه الحالة موهبة يمنحها الله ، ولطف منه يجعله في فطرة بعض النفوس والأرواح المختارة نظراً لاستعدادها الذاتي فتمتنع عن مقارفة الذنوب كبيرها وصغيرها لشدة تمسكها بالشرع واتباعها الدقيق للأحكام . هي إذن حالة ذهنية ونفسية خاصة تنتج عن الإلتزام الدقيق بالأوامر والنواهي إلتزاماً قائماً على العلم اليقيني. هذا الإلتزام يقع من أنفس وهبها الخالق استعداداً فطرياً مطابقاً، ومن ثم ينعدم احتمال صدور الخطأ عن هذه الأنفس . هذا ما فهمته من مطالعة تعريفات مختلفة ذكرها علماؤهم .

Books.Rafed.net

نعم غالى بعضهم في هذا وفي أشخاص الأئمة فرفعوهم منزلة فوق البشر ، إلا أن هذا مردود بأقوال الأئمة أنفسهم وبكتابات المعتدلين من الشيعة ، فلا اعتبار إذن لأقوال الشواذ والمتطرفين . (١)

---

(١) الإمام المعصوم عند الشيعة هو حجة الله على خلقه والحجة تتضمن معنى القدوة والآية الإلهية . وهذا المقام العظيم يستلزم مجموعة صفات تميزه عن كافة الناس ، ومن أبرزها صفة العلم بكل ما يحتاج إليه الناس في جميع مجالات الحياة، ومنها صفة العصمة . وقد حاول المتكلمون والفلاسفة تعريف ماهية العصمة ، وتوصلوا الى أنها لطف إلهي معين في شخصية المعصوم يجعله منزهاً عن المشاعر والأفكار والأعمال السيئة وغير المناسبة لمقامه . ولكن الذي ورد عن المعصومين عليهم السلام هو تعريف المعصوم بأنه (الممتنع بالله تعالى عن جميع معاصي الله) . وهو توجيه لنا أن نسلك منهج تعريف المعصوم دون التوغل في ماهية العصمة ومحاولة معرفة نوعية هذا اللطف الإلهي أو أنواع الألطاف الإلهية التي بواسطتها يعصم الله عبده وحجته المعصوم .
فالعصمة فرع (الحجة) كما أن العلم فرع (الحجة) ومن أصل (حجة الله على الخلق) ينبغي أن نفهم عصمة المعصوم وعلم الإمام وغلو المغالين في شخصيته كما يقول المؤلف ، أو تقصير المقصرين (الناشر) .

Books.Rafed.net

وقد وافق ابن خلدون ــ وهو من أعداء الشيعة ــ قولهم في العصمة على النحو الذي ذكرته ، لكنه فتح الباب فيها لجميع المؤمنين الصادقين ، و لم يقصرها على اثني عشر إماماً ، فقال :

(إن المطلوب من التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس ، يحصل عنها علم اضطراري للنفس هو التوحيد ، وهو العقيدة الإيمانية وهو الذي تحصل به السعادة ، وأن ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ، ويتفهم منه أن الإيمان الذي هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الإعتقاد القلبي وما يتبعه من العمل مستولية على القلب ، فيستتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع التصرفات ، حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني ، وهذا أرفع مراتب الإيمان ، وهو الإيمان الكامل الذي لا يقارف المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة ، إذ حصول الملكة ورسوخها مانع من الإنحراف عن مناهجه طرفة عين ، كما قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : لا يزني الزاني حين يزنى

Books.Rafed.net

وهو مؤمن ... ومعناه أن ملكة الايمان إذا استقرت عسر على النفس مخالفتها ، شأن الملكات إذا استقرت فإنها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة ، وهذه هي المرتبة العالية من الإيمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة ، لأن العصمة واجبة للأنبياء وجوباً سابقاً ، وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تابعاً لأعمالهم) [1]

فإن جازت العصمة بهذا الشكل لكل المؤمنين فكيف نعيب على الشيعة إثباتها لأهل بيت الرسول الذين أذهب ا لله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وفرض محبتهم في كتابه على المسلمين كافة ؟

ولئن كان أهل التشيع قد عصموا اثني عشر شخصاً فحسب جميعهم من سلالة النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، فإن أهل التسنن قد عصموا مئات الألوف من الصحابة ، بما في ذلك الفسقة والبغاة ، كالوليد بن عقبة ، ومعاوية ، وأبو سفيان ، وأشباههم .

---

[1] المقدمة : ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

Books.Rafed.net

صحيح لا يقول أهل السنة بهذا في الكتب صراحة ، لكن الشعور العام ، والأصول الفقهية التي استخرجوا منها جميع أفقهتهم ، تقوم على العصمة الفعلية وافتراض أن كل ما يصدر عن الصحابي ـ وهو عندهم من رأى رسول ا لله ولو برهة ـ صواب ، لأنه ربما سمع أو رأى في ذلك من رسول ا لله شيئاً .

ولقد تنازع الطرفان في موضوع العصمة كما تنازعوا في غيره، واعترضوا على اعتقادات بعضهم البعض ، على النحو المفصل في كتب علم الكلام .

لكني أعتقد أن مسألة العصمة مسألة سياسية بالدرجة الأولى ، وأنها إن حاولنا فهمها كذلك استساغتها العقول الواسعة و لم تجد فيها ما قد يوحيه اللفظ المجرد بلا ربط سياسي .

كيف هي إذن مسألة سياسية كما أزعم ؟

نحن نعتقد أن الإسلام بأحكامه وعقائده ، وأن كتاب ا لله يقيني لا ريب فيه وهذا ما أعلنه منزل الكتاب في بدايته (**ذلك الكتاب لا ريب فيه**) فانتفاء الريب والشك اقتضى وجود معصوم

Books.Rafed.net

بعد النبي عليه وآله السلام يعلم ما في الكتاب من صغيرة وكبيرة علماً يقينياً ييسر تطبيقه ، ويعصم الناس من الخلاف ، لأن النبي لم يفسر القرآن قبل موته ، ولم يترك في كل حال مستجد أمراً ، بل هناك من الأمور ما وقع بعد النبي واختلف الناس فيه لعدم وجود شيء فيه . ولأن عملية التشريع عملية مستمرة متواصلة لكونها مرتبطة بالأحداث والمستجدات ، لذا وجب أن تكون القيادة على يقين فيما تقول وتفتي به ، لأنها لو أخطأت أفسدت على الناس حياتهم . ثم إن الله أمر بطاعة القيادة فقال (**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**) فنص على أن أولي الأمر تجب طاعتهم كما تجب أن تكون أحكامهم وأوامرهم ونواهيهم موافقة للشرع مطابقة لأحكام الدين ، لأن هذا هو شرط الطاعة وأساسها . ومطابقة أوامر ونواهي وأحكام أولي الأمر للدين لا تتم إلا بعصمتهم ، لأن ولي الأمر إذا أخطأ وجب إصلاحه والإنكار عليه ، وهذا يتناقض وأمر الله بطاعته . ويختلف الشيعة عن السنة في تفسير معنى أولي الأمر فهم يرون أن

Books.Rafed.net

المقصود بهم الأئمة الإثنا عشر ، في حين يرى السنة ما نعلم وما نسمع ونقرأ .

ولم أجد من علماء أهل السنة أشد من ابن تيمية والرازي في الرد على عقائد الشيعة ، لكني وجدتهما قد سلما بالعصمة من حيث هي ضرورة سياسية وتشريعية ، فاضطر كل منهما لأن يعصم أحداً ما . فانتقل الخلاف إذن من خلاف على المبدأ نفسه الى خلاف على شخص المعصوم . فسلم ابن تيمية بضرورة عصمة أهل التواتر من الصحابة [1] لأن الأحكام تروى عنهم ، وعصم الرازي أهل الحل والعقد ، لأن من أمر الله بطاعته لابد وأن يكون معصوماً . ولما كان يخالف الشيعة في تفسيرهم لأولي الأمر بالأئمة الإثني عشر فسرها بأهل الحل والعقد . ففي تفسير قوله (**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**) النساء ـ ٥٤ قال :

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال للحافظ الذهبي : ٤٠٩ ـ ٤١٦ ، مصر ١٣٧٤ هـ.

Books.Rafed.net

(إن ا لله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هـذه الآية، ومن أمر ا لله بطاعتـه علـى سـبيل الجـزم والقطـع لابـد وأن يكون معصوماً من الخطأ ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كـان ـ بتقدير إقدامه على الخطأ ـ يكون قد أمـر ا لله بمتابعتـه ، فيكـون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ. والخطأ لكونه خطأ منهي عنه ، فهـذا يفضي الى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالإعتبار الواحـد وإنه محال . فثبت أن ا لله تعالى أمر بطاعة أولي الأمـر علـى سـبيل الجزم ، وثبت أن كل من أمر ا لله بطاعته على سبيل الجزم وجـب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعـاً أن ولي الأمـر المذكـور في الآيـة لابـد وأن يكـون معصومـاً ... ووجـب أن يكـون ذلك المعصوم الذي هو المراد بقوله وأولي الأمر : أهل الحل والعقد من الأمة) [1]

هكـذا نفهـم إذن أن العصمـة موضـوع سياسـي في أساسـه تعـددت بشـأنه آراء الفـرق والمذاهـب الإسـلامية ، كـل حسـب

---

[1] مفاتيح الغيب للفخر الرازي : ٣ / ٢٤١ ـ ٢٤٢ ، مصر ١٣٠٨ هـ .

Books.Rafed.net

موقفه من أحداث الأزمة التي واجهتها الدولة الإسلامية بعد وفاة مؤسسها .

بل إن البحث في عصمة الأنبياء لم يشغل مفكرينا كما شغلهم البحث في عصمة السلطة السياسية والتشريعية في الدولة الإسلامية ، أما المبدأ نفسه ـ مبدأ العصمة ـ فمما اضطروا إلى التسليم به .

ونحن إذا ألقينا نظرة خاطفة على المذاهب السياسية في الفكر البشري شرقاً وغرباً ، رأينا أنها جميعاً تقول بالعصمة وإن اختلف أشكالها ... فلقد عصم اليونان الحاكم ، وكذلك عصمة الرومان، والفراعنة ، وعصمه الفارابي في مدينته الفاضلة ، وعصمه فلاسفة الآلمان مثل هيجل ، وفختة ، وعصمة أتباع المذاهب الديكتاتوري .

بل أن النظم الديمقراطية المعاصرة تعصم الأغلبية فالقرار الذي تتخذه هو الصواب ، ربما شابهوا في ذلك من عصم نخبة أهل الحل والعقد والإجماع والتواتر وما إليه .

Books.Rafed.net

لكن السؤال الذي يقف برأسه أمامنا هنا : هـل قـرار الأغلبيـة دائما على صواب ؟ فإن قلنا نعم ، كذبتنا تجـارب القـرون ، وإن قلنا : لا ، وقعنا في ورطة لأننا سـلمنا بوجـوب العصمـة و لم نمـلأ الفراغ بعد ذلك بتحديد من ينبغي أن تكون له العصمة .

لا فرق اذن بين الشيعة وغيرهم ، فهم ليسوا بدعا بـين الفـرق والمذاهب ، كل ما هنالك أن عدد المعصومين عندهم محدد معين ، والعصمة عندهم ـ كما عند غيرهم من الفرق الدينية قديماً وحديثاً ـ ذات طابع ميتافيزيقي ، وهو أمر طبيعي لاستنادهم في ذلـك الى الدين ، والدين ـ أي دين ـ قائم في نفسه على الميتافيزيقا .

وأعود الى بداية حديثي عن الرأي الآخر :

هم يعتقدون أن مؤسـس الدولـة عيَّـن القيـادة قبـل انتقالـه الى ربه، وأوصى بها لأفضل من في الأمة بعده وهـو الإمـام علـي بـن أبي طـالب ، وأن القـادة بعـده تم تعيينهـم بأشـخاصهم وأسمـائهم أيضاً ، وهم بقية الأئمـة الإثـني عشـر ، وكلهـم مـن بيـت النبـوة والرسالة وسلالة المعدن الطـاهر معـدن محمـد عليـه وآلـه الصـلاة

Books.Rafed.net

والسلام ، إذ قد اذهب ا لله الرجس عن أهل هذا البيت الذي اختاره الخالق ليضع فيه العلم والنبوة وطهرهم تطهيراً ، وتطهيرهم يعني عصمتهم . ويوردون في هذا نصوصاً جمة من القرآن والحديث موجودة كلها في كتبهم وكتب أهل السنة فليرجع إليها طلابها في مظانها .

ولما كان تعيين القيادة بالطرق التي رأيناها خلافاً لهذا النص الذي نصه مؤسس الدولة ، لذا فهم يرونه تعدياً على حق من عينه الرسول للقيادة بعده ، أو باصطلاح أيامنا يعتبرون حكومة من حكموا قبل الإمام علي وبعده غير دستورية ، لأنها تمت وسارت علي غير الطريق المرسوم المحدد من قبل الرسول وبالتالي من قبل ا لله تعالى ، إذ لا يجوز تولي المفضول للقيادة مع وجود من هو أفضل منه .

وأهلية الأئمة القادة من آل محمد عليهم السلام ترجع الى عصمتهم واختيارهم من جانب القائد المؤسس ، وعلمهم الشامل بالشريعة وتفاصيلها ، كما علمهم إياها جدهم صاحب البيت

Books.Rafed.net

ومؤسس الدولة ورسول ا لله . فليس هناك من يفضلهم علماً ولا طهراً ولا نسباً . والتعدي على حقهم في القيادة ، ودفع إمامة الأمة لمن هم أقل كفاءة وأضأل علماً ، هو السبب الرئيسي في الإنحراف الذي طرأ على النظام السياسي وجر الدولة الى المصير الذي نعرفه .

وقد انتهت سلسلة الأئمة أو القادة المعينين من قبل ا لله بغياب آخرهم الامام المهدي عليه السلام عام ٢٥٥ هـ ، ثم أوصى الأئمة بأن تكون القيادة بعدهم للعلماء المجتهدين الذين تتوفر فيهم الشروط وهي العلم والعدالة والفقه والشجاعة والكفاءة وغيرها ثم تشددوا في عدالة العلماء تشدداً كثيراً حتى أن الأكل على قارعة الطريق مما يذهب بأهليتهم للقيادة .

فقيادة الأمة عندهم مرت بمرحلتين ، الأولى تم تعيين القيادة فيها بعد النبي المؤسس ، والثانية ترك الخيار فيها للأمة مع تحديد مواصفات خاصة ، وشروط عامة ينبغي توافرها فيمن يتصدى للقيادة . وشروط القيادة في المرحلة الثانية تكاد تطابق ما عندنا

Books.Rafed.net

حسب ما أوضحه من كتبوا في السياسة الشرعية من عدالة وعلم وسلامة حواس وسداد رأي وبصيرة سياسية وشجاعة وقرشية.[١]

فكل هذا مما لا خلاف عليه ما خلا شرط القرشية . فالسنة اشترطوا في الإمام القرشية ، والشيعة فهموا المراد من ذلك أهل البيت لأنهم أفضل بيت في قريش وهذا يسلم به أهل السنة . أما في المرحلة الثانية فلم يشترط الشيعة القرشية للقيادة ، وإنما جعلوها للأشجع الذي يتصدى لها ويقوم ضد النظام الفاسد بشرط أن يكون جامعاً للشروط التي ذكرناها .

وهم يقولون بأن الإختيار والشورى قد يصح في المرحلة الثانية لا الأولى بعد وفاة المؤسس ، لأن الدول التي تنشأ عن طريق ثورات تسقط الأنظمة القديمة وتقيم في مكانها أنظمة ثورية تمر بثلاثة أدوار : دور التأسيس ويمتد بامتداد حياة المؤسس ، فإذا انتقل الى ربه بدأ الدور الثاني ، وتحتاج الدولة فيه الى قيادة معينة تكون مستوعبة للنظرية التي قامت عليها الدولة فتطبقها تطبيقاً

---

(١) الماوردي : ص ٤ ، أبو يعلي : ص ٤ .

Books.Rafed.net

نموذجياً ، حتى ترسخ جذورها فلا يخشى عليها من العواصف والأزمات السياسية والدستورية .

من أجل هذا وجدنا في الفكر السياسي الحديث نظرية حكومة الحزب الواحد في الأنظمة الثورية ، بعدها تنتقل الدولة الى الدور الثالث بعد أن تكون قد رسخت عمائدها وقوي بناؤها وتحددت الأمور فيها . وفي الدور الثالث يمكن أن تطلق حرية الأحزاب أو الشورى أو التعددية أو الديمقراطية أو غير ذلك من الاشكال ، التي تكفل الاختلاف السياسي في داخل إطار النظرية الأساسية التي قام عليها نظام الدولة .

أما إذا انتقلت الدولة بعد وفاة المؤسس مباشرة الى المرحلة الثالثة بما فيها من حرية وقبل ترسيخ المفاهيم الثورية وإرساء قواعد الدولة وممارسة نظرية نظامها ، وهو ما يتم في المرحلة الثانية فإنها تكون في مهب الريح ، فإن هبت عاصفة سياسية ودستورية شديدة قلعتها من جذورها وأطاحت بنظامها وبنائها . وهذا ما حدث للدولة الإسلامية .

Books.Rafed.net

فهم يقولون إذن بأن الدولة الإسلامية القائمة على النظرية الإسلامية الثورية كان ينبغي أن تمر بمراحل ثلاث ; الأولى : في حياة المؤسس ، والثانية : في ظل حكومة الحزب الواحد أو مجلس قيادة الثورة ، والثالثة : مرحلة التعددية الحزبية في إطار النظرية الأساسية . غير أن انتقالها الى التعددية بعد المؤسس مباشرة قبل أن ترسخ النظرية في القلوب والعقول ، وتستتب أحوال الدولة أدى الى ما نعرفه . هكذا نرى أنهم لا يرفضون الشورى من حيث هي حرية اختيار القيادة ، لكنهم يرونها في المرحلة الثالثة بعد مرحلة المؤسس ومرحلة أهل بيته، ويراهاأهل السنة بعد المؤسس مباشرة.

وهم يلزمون العامة بنظام التقليد للعلماء المجتهدين الأحياء فلايجوز عندهم تقليد الفقهاء الأموات الذين لايدرون ما يحدث في المجتمع من تغييرات ومستجدات تتطلب أحكاماً وحلولاً شرعية .

وفي نفس الوقت تنص نظريتهم على أن القيادة أو الثورة أو عملية قلب النظام الفاسد وإقامة النظام الإسلامي إذا تصدى لها عالم مجتهد جامع لشروط القيادة المذكورة ، ووجد في المجتمع

Books.Rafed.net

كثير من المجتهدين غيره وجب عليهم تأييده لا منازعته ، وبهذا يضمن فكرهم صعود قيادة واحدة للمجتمع مع وجود صف ثان وثالث من الصالحين للقيادة ، فإذا انتقل القائد الى ربه ، وجد هناك من يقود الدولة على نفس الخط .

غير أن الفكر الشيعي بعد عام ٢٥٥ هـ ، وبعد انتهاء سلسلة الأئمة ، مر بعدة تقاعسات كان أخطرها ما انزلق فيه اتباعه من تعطيل للحياة ، وذلك لأنهم فسروا اصطلاح الإمام الموجود في كتبهم بأنه الإمام المهدي فقط ، فإن قيل لا حج إلا بإمام كان معنى ذلك الإنتظار الى حين خروجه أو عودته ، وكذلك الحال في بقية أحكام الدين ، حتى جاء الإمام الخميني رحمه الله رحمة واسعة وأصلح الفكر الشيعي ، وأخذ بيد المتقاعسين فنشطوا من عقالهم ، وأفهمهم أن المقصود بالإمام هنا إمام الدولة أو من ينوب عن إمام أهل البيت المهدي عليه السلام ، أي الفقيه الجامع للشرائط ، لأن القيادة في مرحلة ما بعد الأئمة الاثني عشر آلت الى العلماء المجتهدين .

Books.Rafed.net

نعم كانت هناك أصوات في تاريخ الفكر الشيعي نادت بنفس المقولة ، لكنها كانت أصواتاً خافتة ، لأنها نادت بذلك وهي خارج السلطة ، أما الإمام الخميني رحمه الله فقد أثمرت فكرته ، لأنه تمكن من إقامة نظام جديد ، أمسك فيه بعنان الحكم ، ومن ثم اكتسبت أفكاره قوة من قوة السلطان والحاكم .

وتعرف هذه النظرية بولاية الفقيه ، أي أن تكون للفقيه المجتهد الجامع للشروط المفترض توافرها في القيادة ، الولاية العامة على أمور الدولة ، فيسير أجهزتها الخبراء والمختصون ، بينما يشرف العلماء عليها ليضمنوا سلامة سيرها ، وعدم مخالفة المتخصصين لأحكام الشرع . (١)

هكذا يتضح لنا الإختلاف بين ما عندنا وما عند الآخرين من بضاعة سياسية ، ويتهيأ لي أن الدولة الاسلامية لو امتدت حياتها

---

(١) المعلومات الواردة في هذا الباب استقيناها من المصادر الآتية : أصل الشيعة وأصولها لآل كاشف الغطاء ، عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ، الشيعة في الإسلام للطباطبائي .

Books.Rafed.net

الى سنة ٢٥٥ هـ بدلاً من ٤١ هـ تحت إشراف أهل البيت الرسالي ، لكان شأنها اليوم شأنا آخر .

على أي حال ، فإن ما يهمنا ذكره هنا أننا وإن إختلفنا معهم على الموقف الذي ينبغي وقوفه من الدور الأول بعد وفاة المؤسس، فلا ينبغي أن نتعامى ونتطارش عن أمور :

الأول : أنه في ضوء حقائق التاريخ المدونة لم يوفق النظام السياسي الذي اختير بعدوفاة الرسول في أن يشق بالدولة طريقاً واضحاً مرسوماً، وذلك للثغرات البشرية التي لابد وأننا فهمناها خلال مطالعة الصفحات المنطوية من هذا الكتاب .

الثاني : أن بقاء الفريق الآخر ، بما عنده من فكر سياسي أياً كان خارج الحياة ، ومقاطعتنا لأهله وما عندهم بتضليل من كتاب السلاطين ومشايخ البلاطات ، قد حرمنا فرصة الإستفادة من الرأي الآخر ، وفهم وتقييم ما عنده ، فعشنا قروناً طويلة معصوبي الأعين ندور كالثيران في سواقي الأنظمة والحكام ، يعتلينا هذا فنطأطيء ، ويقودنا ذاك فنسمع ونطيع .

Books.Rafed.net

الثالث : أنه لا خروج من الأزمة إلا بمعالجة النقص في الفكر السياسي ، وبدلاً من الاتجاه شرقاً وغرباً للبحث عن حل ، علينا أن نطلع على ما عند غيرنا من أتباع هذا الدين الحنيف من فكر سياسي وتجربة حركية .

الرابع : أن الإختلاف وإن كان عميقاً بيننا وبين الآخرين فيما يتعلق بالمرحلة الثانية من الدولة الإسلامية والأولى بعد وفاة المؤسس ، إلا أن فكرهم فيما بعد ذلك لم أقف على أحد من عقلائنا رفضة أو يرفضه ، أللهم إلا لدوافع مادية وأسباب تجارية يعرفها الراسخون في العلم بهذا الميدان. ومن هنا أرى فيما عندهم حلاً شافياً لمشكلة القيادة في الحركة الإسلامية المعاصرة . (١)

---

(١) مع احترامنا للمؤلف نرى أنفسنا ملزمين بتوضيح مسألة قيادة الأئمة عليهم السلام ونيابة الفقهاء عنهم .

أما من ناحية تاريخية ، فإن الشيعة بعد النبي صلى الله عليه وآله عملوا بوصيته وتمسكوا بقيادة الأئمة المعصومين من عترته عليهم السلام ، ورجعوا اليهم ، وأخذوا عنهم معالم دينهم وتوجيهاتهم في مختلف أمورهم ، سواء كان الإمام المعصوم حاكماً كعلي والحسن عليهما السلام ، أو مسجوناً كالإمام موسى الكاظم عليه السلام ، أو مفروضاً عليه الإقامة الجبرية كالإمام الجواد والهادي

Books.Rafed.net

والعسكري عليهم السلام . واستمر الأمر على هذا حتى وقعت الغيبة الكبرى سنة ٣٢٩ .

غاية الأمر أنهم في السبعين سنة الأخيرة كانوا يرجعون الى الإمام المهدي عليه السلام بواسطة السفراء والوكلاء ، فكانوا يكتبون إليه الرسائل والأسئلة ، وتأتيهم الأجوبة (التوقيعات) ومعها الدلالات والآيات التي تقنعهم بأنها صادرة منه عليه السلام .

وعندما أخبرهم السفير الرابع علي بن محمد السمري قدس سره بأن الإمام عليه السلام أخبره بأنه سيتوفى بعد أيام وأمره أن لا يعهد الى أحد من بعده ، لأن الغيبة التامة قد وقعت حتى يأذن الله تعالى بالظهور ، فكان هذا حدثاً صعباً على الشيعة ، بل كان هزة شديدة لجماعتهم ، على رغم أن هذه الغيبة موعودة في أحاديث كثيرة ، رووها هم وآباؤهم وأجدادهم .. وهنا نهض الفقهاء والرواة وألفوا العديد من الكتب في الغيبة الموعودة ، وفيما يجب اعتقاده وعمله في عصر الغيبة .

ومن ناحية أخرى ، كانت جماعة الشيعة في عاصمة الخلافة بغداد وفي بقية بلاد المسلمين أقلية مضطهدة ، بل كانت تواجه في مناطق عديدة خطر الإبادة الكاملة ، فلا يصح القول إنه حدث تقاعس عند الشيعة عن عقيدة الإمامة . بل الصحيح أنه حدث فراغ كبير بغيبة الإمام عليه السلام وهزة عنيفة لجماعة الشيعة ، ورافق ذلك اضطهاد الدولة ، وتخطيطها للقضاء على هذه الجماعة وإبادتها نهائياً .

ولكن الشيعة استطاعوا أن يستوعبوا هزة الغيبة واضطهاد السلطة ويواصلوا وجودهم والتزامهم بعقيدتهم . وكان للفقهاء والرواة دور مؤثر في ذلك .

Books.Rafed.net

أما من ناحية عقيدية ، فإن من ضرورات مذهب الشيعة أن الأرض لا تخلو من إمام ، إما ظاهر مشهور أو خائف مستور ، وقد كان علي عليه السلام ينادي بها من على منبر الخلافة . وأنه لو بقي شخصان على وجه الأرض لكان أحدهما إماماً وحجة لله تعالى على الآخر . بل وردت الرواية بأن الأرض لو خليت من إمام لساخت بأهلها .

وهم يحتجون على المذاهب الأخرى بمثل قول النبي صلى الله عليه وآله (**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتي . كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض ، وعترتي أهل بيتي . وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروني بم تخلفوني فيهما**) مسند أحمد ج ٣ ص ١٧

فإن لا معنى لإخبار الله تعالى بعدم افتراق القرآن والعترة الى يوم القيامة ، إلا أنه تعالى تكفل بوجود إمام من العترة يبين القرآن في كل عصر إلى يوم القيامة. نعم قد يبتلي الله عباده فيغيِّب عنهم حجته الى مدة تقصر أو تطول ، لأسباب وحكم لا نحيط بعلمها ، كما حدث في خاتم الأئمة المهدي عليه السلام ، حيث مد الله تعالى في عمره كما مد في عمر الخضر وغيره . وهنا يأتي دور مرجعية الفقهاء ، كما اصطلح الشيعة على تسميته . ويمكن أن نسميه دور الفقهاء وقيادة الفقهاء ، لكن لا يمكن أن نسميه (إمامة) الفقهاء بالمصطلح الشيعي ، لأن الإمامة عند إطلاقها بدون قرينة مخصوصة بالإمام المعصوم المعين من الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وآله .

فينبغي الالتفات الى أن إخواننا السنة قد أطلقوا لقب (الإمام) في القرون المتأخرة على الخليفة ، ثم أطلقوه على كبار العلماء، ثم توسعوا في إطلاقة على الخلفاء والعلماء حتى اضطروا الى إضافة وصف آخر معه ليدل على خليفة أو السلطان أو كبير العلماء ، فقالوا (الإمام الأكبر) تمييزاً له عن الأئمة الصغار .

Books.Rafed.net

أما الشيعة فكلمة الإمام عندهم أولاً وبالذات إسم للإمام المعصوم عليه السلام، وعندما يطلقونها على غيره فمن باب التوسع المجازي ليس إلا ، ومن هذا القبيل إطلاقها على المرحوم الإمام الخميني قدس سره ، وليس بمعنى أنه إمام ثالث عشر ، ولا بمعنى أن الشيعة يعتقدون بإمامة الفقهاء من سنة ٢٥٥ كما تصور المؤلف ، فإن من ضرورات عقيدتهم (ومن الأمور التي كان يؤكد عليها الإمام الخميني قدس سره) أن الإمام المهدي عليه السلام هو الإمام الفعلي إمام العصر المفترض الطاعة ، غاية الأمر أن الأمة محرومة من نعمة ظهوره وقيادته الفعلية المباشرة . والفقهاء نواب بالمعنى الأعم للنيابة ، وبديل غير معصوم ، رغم علو درجاتهم وشامخ مقامهم .

وقد جرى البحث ويجري في شروط الفقيه المرجع في عصر الغيبة وفي مدى صلاحياته ، فمن قائل بأنه أعلم الفقهاء في كل عصر ، ومن قائل بأن الأعلمية تعني الأقدر (أكاديمياً) على استنباط الأحكام فقط ، ولا تعني الأعلم بشؤون العصر والادارة . ومن قائل يجوز تقليد كل مجتهد ولو كان غير الأعلم .ومن قائل إن صلاحياته الإفتاء والقضاء والأمور الحسبية فقط ، ومن قائل تشمل صلاحياته مضافاً الى ما ذكر إجراء الحدود ، ومن قائل تشمل كل ما يحتاج اليه إقامة الدولة وإدارتها ، بل كل ما يراه مصلحة ولو اقتضى نزع الملكية عن المالك الشرعي وطلاق الزوجة من زوجها الشرعي ، وهو ما يعبر عنه أخيراً بولاية الفقيه المطلقة.. وهو رأي المرحوم الإمام الخميني قدس الله نفسه الزكية.

وخلاصة القول : أن الإمام الفعلي عند الشيعة هو الإمام المهدي عليه السلام وإن كان غائباً ، والفقهاء مراجع الدين نوابه بالمعنى الأعم لا الأخص. أما شروط الفقيه وحدود ولايته فهما مسألتان فقهيتان يرجع فيها المكلف الى مرجع تقليده . وكذا المسائل التي طرحها المؤلف في الفصل الأخير، مثل

Books.Rafed.net

تشكيل حركة إسلامية ، أو حزب ، أو استعمال هذا الأسلوب أو ذاك .. فهذه مسائل فقهية لا يصح للإنسان أن يفتي فيها إلا إذا كان مجتهداً جامعاً للشرائط ، ولا يجوز للمكلف أن يسلك هذا الطريق أو ذاك إلا بفتوى من مرجع تقليده .

ومادام محور الطرح الذي يقدمه المؤلف هو قيادة العلماء والمراجع ، سواء كانوا على مذهب الشيعة أو مذاهب السنة ، فهم الذين يفتون بوجوب العمل بهذا الأسلوب أو ذاك ، ولا يصح لأحد أن يعين لهم تكليفهم وخط عملهم . اللهم إلا أن يكون ما يقدمه تصوراً واقتراحاً من أجل البحث وإعطاء الفتوى فيه . ولعل ذلك هو قصد المؤلف المحترم . (الناشر)

Books.Rafed.net

Books.Rafed.net

أطروحة الحل.....٢٠١

أطروحة الحل

رأينا ما عندنا وما عند الآخرين من رأي في مشكلة القيادة ، واتضحت لنا الصورة بزواياها وأبعادها ، وعلينا الآن أن نفكر قليلاً ونتخذ خطى جادة لإصلاح الحال ، فعلينا أن نعلن للعالم صراحة أن ديننا الكامل ليس فيه ما يحل مشكلات عصرنا السياسية ، ومن ثم فلا حرج في أن نعيش على الفكر المستورد ، كما نعيش على الأغذية والمعلبات المستوردة .

والواقع أن الحركة الإسلامية في العالم السني تواجه من بين ما تواجه مشكلة أخرى مرتبطة بمشكلة القيادة ارتباطاً قوياً ، وأعني بها مشكلة شكل التحرك والتنفيذ . فالأفكار التي تدور في أذهان

Books.Rafed.net

كل من تمنى تنفيذ الاسلام واشتاق لرؤيته حياً من شيوخنا وشبابنا لا تخرج عن ثلاثة :

الأول : الإنقلاب العسكري فذلك مما يؤمن الكثيرون به أسلوباً للتغيير وتنفيذ الإسلام وتطبيق الشريعة . وهؤلاء لم يفهموا قطعا طبيعة هذا الدين ونظريته . وتجربة باكستان والسودان في هذا دليلى وسندي.

الثاني : العمل السري ، لكننا إذا سألنا أصحابه : هل يمكن ضم كل الشعب الى العمل السري ؟ ولو فرضنا نجاحه فماذا بعد التفجيرات والإغتيالات هنا وهناك ، دون قيادة جامعة ؟ أنا لا أنكر أهمية هذا العمل في المسيرة ، لكنه ينبغي أن يكون محدوداً جداً ولا يسمح به إلا في ظروف خاصة للغاية ، أما الإعتماد عليه كأساس فهذا لا يفيد .

الثالث : إلباس الحركة الإسلامية ثوب الحزبية تنظيماً وتحركاً على غرار الأحزاب السياسية العاملة في النظم الديمقراطية ، وهي الحفرة العميقة التي وقعت فيها الجماعة الإسلامية في باكستان فلم

Books.Rafed.net

تخرج منها منذ عام ١٩٤١ ، بل أوقعت فيها غيرها من التنظيمات كالإخوان المسلمين في مصر وغيرها .

والسالكون لهذا الطريق يعاملون الإسلام كغيره من نظريات حزب العمل والمحافظين والديمقراطيين وليكود وغيرهم ، فليس الإسلام نظريةتطبق عن طريق البرلمانات وقنوات الأكثريةوالأقلية، وأبسط ما في هذه الطريقة من إشكال أننا لو فرضنا حصول هذه الجماعة أو تلك في مصر أو باكستان أو السودان أو غيرها على أكثرية مقاعد البرلمان ، وهذا في نفسه مستحيل ـ وتمكنت من تطبيق الإسلام أو قوانينه فهل يتم بذلك تغيير النظام نفسه ؟ وإذا قيل نعم وسلمنا بهذا جدلاً ، فماذا سيكون مصير هذه القوانين إذا جاء حزب آخر في البرلمان ، أو انقلب الجيش بتحريض من الخارج أو الداخل وعطل الحياة الدستورية ، وألغى هذه القوانين ؟ هل نسكت على إلغائها ، فنكون قد رضينا بالكفر ؟ أم نخرج في ثورة عارمة دموية دفاعاً عنها ؟ فإن كانت الأولى فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإن كانت الثورة فلماذا لا نختارها من البداية ، بدلاً

Books.Rafed.net

من تضييع العقود بل القرون في تجريب الديمقراطية كوسيلة لتطبيق ما لا يمكن تطبيقه بأساليب غيره من النظريات ؟

وقد تناولت هذه النقطة بقدر من التفصيل في كتيب بعنوان (بين أسلوب الدعوة وأسلوب التنفيذ) فليرجع اليه من أراد الاستيضاح ، وما أود التأكيد عليه هنا أنني أعتقد أن الإسلام ليس نظرية رجعية ، ولا حزبية ، بل هو نظرية ثورية شاملة لا يناسبها إلا الأسلوب الثوري في التنفيذ .

ولو افترضنا جدلاً أن جمع الأساليب والطرق الثلاثة المذكورة صالحة لتنفيذ الاسلام وإقامة دولته ، فليس أن أسأل ما هو النظام البديل الذي يستلم السلطة : هل يصلح تطبيق الإسلام في ظل نظام غير إسلامي هو الموجود حالياً ؟ فإن قيل نعم ، وقعنا في معضلة فقهية ما لنا منها مخرج ، وإن قيل لا ، قلنا فماذا عندنا من نظام بديل يملأ الفراغ الذي سيوجد بعد إسقاط النظام القديم ؟

أم تقولون نسقطه أولاً وبعد ذلك تفرج ؟

وأكاد أعتقد أن أطروحة الحل ينبغي أن تكون شاملة تتوفر فيها عناصر الشمولية بحيث تحقق ما يلي :

Books.Rafed.net

أولاً : حل مشكلة القيادة .

ثانياً : تبني الأسلوب الثوري لتطبيق الإسلام ، وذلك بقدرتها على السيطرة على رجل الشارع البسيط واجتذابه .

ثالثاً : القضاء على ظواهر الفشل الحركي كظاهرة أمراء وقادة الشقق والحواري ، وزعماء الأحزاب والتنظيمات ، وظاهرة تشكيل التنظيمات التي يحركها قادة أموات في قبورهم .

وأظن ـ وبعض الظن اثم ـ أن هذا الشق من الأطروحة والذي قبله سيكونان سبب رفض المستفيدين تجارياً واجتماعياً لها جملة وتفصيلاً ، حتى قبل مناقشتها وعرضها على الشرع والعقل والقلب .

رابعاً : إقامة النظام البديل الذي يتولى مكان النظام الساقط . وإن كنت أوثر ترك هذه النقطة الآن ، مكتفياً بما يمكن أن يفهمه ذهن القاريء اللبيب عن قدرةهذه الأطروحة على ضمان وتحقيق ذلك.

ولا أحسبن أحداً يتوقع مني طرح كل التفاصيل أو حتى بعضها ، لأنني لن أهتم بهذا ، إنما سأعرض الخطوط العريضة ،

Books.Rafed.net

والسمات العامة فقط . ولا يعني توجيه كلامي الى مصر وأهلها ، أو صياغة الأطروحة حسب ظروف المجتمع المصري ، أنها لا تصلح لغيره بل أظنها تصلح لكثير من المجتمعات بعد شيء من النقص والزيادة هنا أو هناك .

١ ـ تحديد الهوية :

الحركات والتيارات التي تسقط أنظمة وتقيم ، لابد وأن تتميز بوضوح الرؤيا أياً كانت هذه الرؤيا : وطنية أو دينية أو غير ذلك، وبدون هذا الوضوح تصبح الحركة كالأطرش في الزفة ، لا يدري أين هو ، ولماذا يجتمع الناس .

وتبسيطاً على الطالبين أقول إن عناصر قيام الدول واشتداد الحركات لا تخرج عن (العصبية) بكل نواحيها ، عصبية عرقية ، أو عصبية مذهبية ، أو لغوية أو غيرها . هذا ما يقوله التاريخ وعلوم السياسة والعمران . والعصبية والتعصب ليس مذموماً في ذاته بل المذموم الطريق الذي يستخدم فيه ، لأن التعصب من حيث هو كذلك إحساس بشري لا ينكر ولا يكبح ، ومثله كمثل بقية المشاعر، فالغضب مثلاً إحساس بشري إن كان في الله

Books.Rafed.net

ولدينه فهو ممدوح يثاب المرء عليه ، وإن كان لكرة القدم أو هـذا أو ذاك من الأندية ، فلا شك مذموم . والعصبية كذلك .

فإذا نظرنا الى مجتمعنا المصري وجدناه يفتقـر الى هويـة ، فهـو مجتمع هلامي غير محدد الأطر والمعالم ، فليست فينا عصبية لوطـن أو عرق ، ولا تحمـس للغـة أو مذهـب ، وهـذا هـو المقتـل ، لأن مجتمعا بهذا الشكل يصعب على المتحركين فيه تأسيس دولة .

من هنا كان علينا أن نفهـم أن أول خطـوة نخطوهـا يجـب أن تكون تنمية الحس الوطني والتعصب لهذا الوطن والرغبة في تحريـره من الإستعمار بكل ألوانه وأشكاله .

ويجب أن نعرف أننـا مستعمرون لا نملـك قرارنـا في أيدينـا ، وأن هـذا الإستعمار عسكري وسياسـي وإقتصـادي وإعلامـي وثقافي، بل وحتى في مجال الطب والأدوية ، ولا أرى هذا الكتاب محلاً لتفصيل ذلك .

والثانية : أن عدم التحمس لفقه معين ومذهب محدد سم قـاتل لا تقوم معه دولة ، فصيحة التحرر من المذاهب براقـة في ظاهرهـا

Books.Rafed.net

إذ يقول أصحابها عليكم بالكتاب والسنة ، والكتاب معنا والسنة مدونة ولا حاجة لنا بعد ذلك فنتبع هذا أو ذاك . أي أن كل أحد يستطيع اتباع الكتاب والسنة بنفسه ، وهذا أمر جد خطير أدى الى الفوضى الفكرية والتنظيمية والقيادية التي نراها .

كما أن هذه الدعوة تتضمن تقويض ما بين المسلمين وبين الجهود العلمية والإجتهادية التي أنجزها الأجداد ، لأن عدم الإنتماء الى هذا أو ذاك يبتر المسلمين عن ماضيهم ، ويجعلهم يبدؤون جهود التشريع من جديد إذا قامت لهم دولة .

ثم إن أصحاب هذه النعرة في الوقت الذي ينادون فيه بعدم الإلتزام بأي من الأفقهة ، تراهم يلزمون الناس وفيهم البسطاء وانصاف المتعلمين باتباع آراء فلان وفلان . والنتيجة الطبيعية إذا مشينا وراء هذا التيار أن يصبح في كل شقة فقهاء بعدد أفراد ساكنيها . ولا أشك ذرة في أن هذه الفكرة أدخلها الإنجليز في الإسلام في وقت معين من أجل تفتيت الكيان الإسلامي في كل بلد ، وإدخال المسلمين في طريق شكله جميل لكنه لا يقود الى شيء .

Books.Rafed.net

والخلاصة أن أصحاب هذه النظرية ليس لديهم رؤية واضحة، فلا التصورات الفقهية عندهم واضحة ، ولا الفلسفة السياسية خلف دعواهم مؤطرة ، ولا طرحهم الإجتماعي ـ إن كان لديهم شيء منه ـ مرسوم .

من أجل هذا علينا أن نتخذ موقفاً ونتبنى فقهاً معيناً جعفرياً كان أو شافعياً أو غير ذلك ، مادام يصلح للقرن العشرين ، ثم نتحمس لتطبيقه وإشاعة أحكامه .

٢ ـ نظام الإجتهاد :

فإن اختارت الأمة لنفسها المذهب الجعفري فلا إشكال إذن لأن قواعد هذا المذهب ، وما فيه من مبادئ حركية كفيلة بحل كل مشكلات المسيرة . وإن اختارت مذهباً آخر فعلينا أولاً أن نغرس في نفوس الناس عامتهم وخاصتهم حب العلماء واحترامهم وإجلالهم ، كما على العلماء بدورهم التعبير عن مشكلات الشعب وأمانيه ووجهة نظره ، وتبني موقفه ، والكلام بلسانه ، والتصرف في المواقف بأسلوب الأحرار وطريقتهم ، لا بطريقة عبيد الحكومة وحاشية السلطان .

Books.Rafed.net

وعلينا بعد ذلك أن نشكل مجلساً من مجتهدي المذهب الذي نختاره، ودرجات الإجتهاد ، وصفات المجتهدين مشروحة مدونة في مظانها فليرجع اليها من أراد ، لكنه لا ينبغي أن يكون المجتهد مجتهداً في الحيض والنفاس وما إليه من الأحكام فحسب ، بل يجب أن يكون كذلك في كل جوانب الحياة وما يتعلق بها من أحكام ، وأن يكون واعياً بسياسة الدولة وقوانينها ، فاهماً للإستراتيجية وعلومها ، مستوعباً للقانون الدولي وطرق تسيير الدولة وقيادة الأمم ، لأن المعركة التي تخاض في سبيل تأسيس دولة الإسلام لن تكون حول أحكام الحيض والنفاس وأحكام المولود والزكاة والمواريث ، بل ستكون معركة نواجه فيها العالم بقواه الكبرى ، التي ستجتمع لإبادة هذا الدين .

إذ من السذاجة أن نتصور أن العالم سيستريح لقيام دولة إسلامية في مصر أو في غيرها .

لابد إذن أن يكون المجتهد حياً يعرف ما يدور في زماننا من مشكلات ، ويعي حلولها في ضوء أحكام المذهب والقوانين الدولية ، لأن الشافعي وأبا حنيفة ومالك وغيرهم يرقدون في

Books.Rafed.net

قبورهم لا يدرون من أمر دنيانا شيئاً ، فإن أردنا إقامة الدولة على أي من مذاهبهم فلابد من إحياء نظام الإجتهاد بأن يكون ثمة مجتهدون أحياء يجدون حلولاً لمشكلات عصرنا ، بشرط أن يتوفر فيهم العدالة بشروطها علاوة على الإخلاص وسعة العقل وسلامة الدين وزهد الدنيا وحب الشهادة وشجاعة الفؤاد وحب الوطن ، والقدرة على التصدى للشرق والغرب والإكتمال في جوانب القيادة ، فيكون الواحد منهم زعيماً روحياً وقيادة سياسية حكيمة ومرجعاً فقهياً عاماً .

ثم علينا إنشاء نظام تعليم ديني توضع مناهجه وأسسه بحيث تضمن إنتاج وتخريج أنماط من هؤلاء المجتهدين يقودون الشارع الإسلامي على طريق الحق . ولتكن هذه المدارس أهلية ينفق عليها المسلمون أنفسهم بدلاً من إنشاء بنوك إسلامية ، وشركات استثمار ، وسوبرماركيت ، وغير ذلك من المؤسسات التي تخدم في النهاية نظام الكفر المسيطر عليها وعلى المجتمع .

فإذا توفر لدينا ثلاثة أو أربعة مجتهدين من هذا النوع ، فعلى أحدهم أن يتصدى لخوض المعركة السياسية لإقامة الدولة

Books.Rafed.net

الإسلامية وعلى الآخرين تأييده لا منازعته ولا مخالفتـه ، علـى أن يكون هذا المجتهد المتصدي تقياً زاهداً واعياً فاهمـاً طـاهراً نظيـف الجيب شريف اليد عفيف النفس ناصع الماضي واضح الرؤية .

هذا على مستوى القيادة . فأما على مسـتوى القـاعدة فينبغـي إلزام كل من ليس له رتبة الإجتهاد ، ولا يستطيع النظر في الأدلـة الشرعية بتقليد أحد المجتهدين ، وينبغي أن نفهم أن ربـاط التقليـد بين المقلد والمرجع ليس رباطاً واهياً ولا ضعيفاً إنما هـو مـن أقـوى الأربطة وأمتن الصلات ، إذ يشد القاعدة بالقمـة ، ويربـط الفـرد العادي بقيادته . والناس وفـق هـذا النظـام أحـرار في اختيـار مـن يقلدون ولا إجبار لهم في تقليد هذا من المجتهدين أو ذاك .

٣ ـ الإستقلال الإقتصادي :

استقلال العلماء إقتصادياً أهم أمر من أمور الحركـة ، وبدونـه لا يمكن إقامة دولة ونظام مـن الطـراز الـذي نتحـدث عنـه . وفي غياب الإستقلال الإقتصادي نجد أن العلماء ـ وهذا لفظ أستخدمه هنا مجازاً لأن العالم الحقيقي عف اليد شريف النفس ـ أقـول نجـد

Books.Rafed.net

العلمـاء يختـارون واحـداً مـن الطـرق الآتيـة لسـد ضروراتهـم واحتياجات عوائلهم :

أما الإنسلاك في وظائف الحكومة وهذا يؤدي بهم الى موافقـة الحاكم حفاظاً على الرواتب . ولما كـان الحـاكم وحكومتـه كمـا نعلم ، فإن هؤلاء العلماء يضطرون لإرضائه بمـا يسـخط الـرب ، وبهذا يخرج كثير منهم عن الجادة .

فإن لم ينسلك العالم في سلك الحكام وأراد أن يلعب في دائرة المعارضين للنظام في الدول التي فيها معارضة إسمية، نراه يحتـاج الى المال ، إذ لا سياسة بلا مال ، ولا نشاط بدون نفقات ، فإذا بمثـل هـذا يتسـكعون أمـام السـفارات ، ينتهـزون النزاعـات الدوليـة والإقليمية فيعرضون خدماتهم على أحد طرفي النزاع ، ويقبضـون منه ، ويؤيدونه ولو كان موقفه باطلاً لا شك في بطلانه .

وقد كشف الحرب بين إيران والعراق لنـا كثـيراً مـن هـؤلاء . وبهذا يتحول هذا القسم الى تجار دين ، مثلهم مثـل القسـم الأول لأن كليهما يخدم نظاماً مقابل قرش .

Books.Rafed.net

فإن لم يفعل العالم هذا أو تلك ، خرج في إعارة هنـا أو هنـاك ليجمع قرشين يعدل بهمـا حالـه ، ويـزوج أبنـاءه وبناتـه ، وهـذا يحافظ على راتبه بارضاء الدولة المعار منها والمعار اليها ، فلا فـرق أيضاً بين هذا ومن سبقوه .

أو تراه مثلاً افتتح له دكاناً اسلامياً في شكل مدرسة أو جامعة اسلامية ، جمع باسمها التبرعات ووجد لها مـن يمولهـا ، خاضعـاً في ذلك لتنفيذ سياسة الممولين .

هكذا نرى أن الإسـم الجـامع لهـذه الأشـكال التعايشـية كلهـا مهما اختلفت وسائلها ودوافعها هو (التجارة) ولا شيء غيرها. وهؤلاء لا يمكن لعاقل أن يتوقع منهم مساندة الحق أو التضحية بما هم عليه في سبيل هذا الدين .

فلابد إذن من تحقيـق الإسـتقلال الإقتصـادي للعلمـاء في ظـل نظـام المجتهديـن الأحيـاء ، ولذلـك أرى ضـرورة دفـع الزكـاة والصدقات والكفارات من قبل المقلد الى المجتهد الذي يقلده . ولا أرى بأساً في الأخذ بنظام الخمس كما في المذهب الجعفري ، وهو أن يدفع كل مقلد خمس ماله المتبقى بعد أن يدخر له ولأولاده مـا

Books.Rafed.net

يكفي مؤونة عام . ثـم يقـوم المجتهـدون بالإنفـاق مـن هـذا المـال المجتمع لديهم وهو كثير ، على أنفســهم بـالمعروف ، وعلـى بقيـة العلماء وطلاب المدارس الدينية والحركة الإسلامية وما تحتاجه .

وهكذا يتحقق الإستقلال الإقتصادي للعلماء ، فإذا تحقق هــذا استطاعوا الوقـوف في وجــه الظـالمين ، بـدلا مـن مسـاندتهم وإرضائهم بما يسخط ا لله .

٤ ـ حركة المتحركين :

في ظل هذا النظـام يطلـق للأفـراد المقلدين حريـة الإبتكـار في الحركة عن طريق تشكيل تنظيمـات وأنديـة وإتحـادات وجمعيـات ذات أشكال مختلفة وأهداف ومقـاصد متباينـة ، لا تتنـاقض فيمـا بينها وإن تعددت . هذه التنظيمات العلنية تنتشر في جسد المجتمـع وتمتد الى الحواري في كل مكـان لتجـذب اليهـا رجـل الشـارع . ففي وجود هذه الأشكال التحركية لا يسـتطيع الفـرد العـادي أن يفلت من الإرتبـاط بالقيـادة العامـة للحركـة ، فـلا يتعـثر جهـده خارجها . فهذا فرد أعجبته جمعية لتحفيظ القـرآن شـكلها أتبـاع

Books.Rafed.net

هذا المجتهد أو ذاك فـانضم إليهـا ، وآخـر جذبتـه جمعيـة ثقافيـة ، وثالث انضم لمنبر سياسي ، ورابع الى تنظيم يهتم بحقوق الإنسان، وخامس الى نقابة عمالية أو تجارية ، وكـل هـؤلاء نجـد جهودهـم تنصب في النهاية في إطار المرجعية العامة ، فلا يفلت مـن التنظيـم العام أحـد ، لأن أي جماعـة يختارهـا المـرء للعمـل وفـق إمكاناتـه وقدراته ومواهبه ستوصله في النهاية الى نفس الطريق الذي يسلكه غيره، لأن الحركة يسيطر عليها قيادة واحدة .

هكذا نجد أن هذه الأطروحة تحقق ما يلي :

١ ـ وحدة القيادة .

٢ ـ سير الحركة وفق الخط السليم وفي إشراف المرجع الأعلى.

٣ ـ إذابة كل التنظيمات الـتي علـى السـاحة في داخـل تنظيـم واحد .

٤ ـ إختفاء ظاهرة أمراء الحواري ومفتيي الشقق .

٥ ـ تأسيس دولة داخل الدولة ونظام في قلب النظام .

Books.Rafed.net

٦ ـ توفير الإستقلال الإقتصادي للعلماء ، وبالتـالي تشـجيعهم على مواجهة الظلم والظالمين .

٧ ـ ضمان عدم تأثير أي ضربة توجههـا السـلطة للمتحركـين خشية من رد فعل القيادة .

٨ ـ غالباً ما تشل هذه الأطروحـة قـدرة النظـام علـى التنكيـل بالعاملين، لأن القيادة إذا أصدرت أمرها ـ وهو عنـد المقلديـن لـه احترامه وينبغي أن يطاع ـ أمكنهـا أن تـنزل الى الشـارع مليونـين من المقلدين وهو كابوس مخيف بالنسبة للنظام ، أي نظام .

٩ ـ تحويل الحركـة الى حركـة قويـة لهـا قـدرة علـى التصـدي للأمور ، والتعامل مع النظام نداً لند .

١٠ ـ حل مشكلة القيادة ، وتنظيـم درجاتهـا لأن التنظيمـات المنتشرة في جسد المجتمع ستنتج قيادات حركية متنوعة ، منهـا مـا يصلح للصف الثاني ومنها ما ينفـع للصـف الثـالث والرابـع عنـد اقتضاء الضرورة، فتتحـول الى مسـتودع ضخـم يدفـع الى المجتمـع بملايين الأتباع المقلدين، وآلاف القادة ، ومئات أساليب التحرك.

Books.Rafed.net

وهناك كثير وكثير من الاهداف التي يمكن أن تحققها هذه الأطروحة ، أمسكنا عنه خشية الإطالة.وإن كان لي من قول بعد ذلك، فهو أني على يقين من معارضة طائفة التجار لها ، لأنها ستمنع اتجارهم بالدين وبناء الأبهمة الذاتية والأوضاع الإجتماعية الشخصية .

ومع هذا فكلي أمل في أن يستجيب لها المخلصون الذين يشعرون بالأزمة التي تعاني منها الحركة الإسلامية ، ويبحثون لها عن حل يخرجها وأصحابها من المستنفع الذي طال رقادها فيه .

Books.Rafed.net

المحتويات

المقدمة ١١

القيادة إمامة وخلافة..... ١٥

صياغة الفكر السياسي..... ٢٣

القيادة في ضوء ممارسات الجيل الأول..... ٤١

بيعة أبي بكر (رض) ٤٤

بيعة عمر بن الخطاب (رض)..... ٧٢

بيعة عثمان بن عفان (رض)..... ٨١

مدة التشاور ثلاثة أيام..... ٨٧

معاوية والثورة المضادة..... ١٠٣

فكرنا السياسي إسلامي أم سلطوي ؟..... ١٢٧

هذا النقد ليس تجنياً ١٣٦

انقسام الأمة والقيادة..... ١٥٣

الرأي الآخر ١٧٥

اطروحة الحل ٢٠١

تحديد الهوية..... ٢٠٦

نظام الإجتهاد..... ٢٠٩

الاستقلال الإقتصادي..... ٢١٢

حركة المتحركين..... ٢١٥

Books.Rafed.net